
روايات مصرية للجيب
زهور
109
قلوب
فى الصحراء
Looloo
www.dvd4arab.com
م. على ماهر عيد

هذه السلسلة ..

عندما تتحولُ حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحبِّ .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيدُ إلى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

الفصل الأول

(شهـــيرة)

أنا (شهيرة) فتاة عصرية جدًا خريجة الجامعة الأمريكية ..

بابا طبيب ، وأستاذ جامعى مشهور ..

وماما طبيبة فرنسية تعرف عليها بابا أثناء دراسته للدكتوراه .

وأنا موظفة بهيئة اليونسكو العالمية .

وقد سعيت حتى أقوم بمهمة دراسة حياة البدو فى صحراء أسوان .

والحقيقة أنى سعيت لألحق بخطيبى وحبيب قلبى ، والشاب الوحيد فى حياتى المهندس (أيمن) ، وهو أيضًا موظف بهيئة اليونسكو ، ويعمل فى مزرعة تجريبية فى صحراء أسوان .

طبعًا (أيمن) لا يعرف أنى قادمة إليه ، لأنى أحب المفاجآت لأبدد بها الملل الذى يكسو حياتى .

و(أيمن) خطيبى له نفس تكوينى ، والده دكتور فى الجامعة ، وأمه أوروبية وتعمل مديرة مكتب تجارى ، وهو أيضًا خريج جامعة أوروبية ، وأهم صفاته أنه وسيم ، بل ساحر .

فى النادى ترمقه البنات بإعجاب ودهشة تثير فخرى .

والصفة الثانية التى تعنينى شخصيًا هى إجادته لكلمــات الغزل الرقيق التى يسكبها فى أذنى فتدغدغ إحساسى .

إنى فى شدة الشوق إليه ، ولذلك ضغطت على البنزين لتسـرع السيارة . وعنـد البوابـة التـى تفصل مدينـة أسوان عن الحـدود الجنوبية تطلَّع المجند إلىّ غير مصدق ، وهتف بلهجة صعيديـة : يا بـو ى !

طبعًا هذا كان إعجابًا تلقائيًا ، وتحية لجمــالى بـالرغم من ارتدائـى ملابس جنز ، وحذاء مطاطيًا ، وقبعة أخبئ بها الذهب الذى يلون شعرى .

ونادى المجند على رفيقه ، ثم نادى على المساعد (محمد) ..

وقفت السيارة أمام البراميل التى تسد الطريق ، وتقدم الجنـدى منّى ، فقلت له :

ـ افتح الطريق .

لاحظ الجندى لهجة الأمر التى فى حديثى ..

فضحك متعجبًا « لأنه لا يعرف من أنا » ، وقال ساخرًا :

ـ لماذا ؟! وإلى أين تذهبين ؟ وأين تصريح الحدود ؟

وأين بطاقتك الشخصية ؟

لو تركته يسترسل لوضع كل علامات الاستفهام ، صحت فيه :

ـ أين رئيسك ؟

تقدم رجل أسمر سمين ذو كرش كبير ، « هذا الرجل يشوّه المظهر العسكرى » ..

قال الرجل معلنا عن نفسه :

ـ نعم ؟ ماذا تريدين ؟ أين تصريحك ؟

بكبرياء شديد قدمت له بطاقة اليونسكو ..

وقلت له :

ـ أنا باحثة تبع هيئة اليونسكو ، وذاهبة إلى المزرعة الخاصة بالهيئة العالمية ، الموجودة فى طريق العلاقى .

تطلَّع الرجل (ذو الكرش العظيم المخـالف للهيئـة العسكرية) إلى البطاقة ، وقال بشكل آلى :

ـ اسمك شهيرة ؟

ـ نعــم .

سأل متَّهِمًا :

ـ أين تصريح المرور ؟

سألته بدورى :

ـ وما هو تصريح المرور هذا ؟!

ـ تصريح تستخرجينه من قيادة حرس الحدود .

قلت له مذكرة بوضعى العالمى :

ـ أنا تبع هيئة اليونسكو .

فأخذته العزة بالنفس ، وقال بكبرياء :

ـ وأنا تبع حرس الحدود .

نظرت إلى كرشه وهمست :

ـ هذا واضح .

لاحظ الرجل نظراتى إلى كرشه ، فقال بعناد :

ـ لن تمرى إلا بتصريح .

وبدأت السيارات المحملة بالجرانيت من المحاجر فى الوصول ، وتصاعدت أصوات السائقين مزمجرة :

ـ هيا يا عم (محمد) .. دعنا نمر .

نظر إلىّ المساعد ، وأشاح بيده قائلاً :

ـ اركنى على جنب الآن .

وذهب الرجل إلى سيارة نقل ، وأخذ ورقة من السائق ، وجاء إلىّ وقال ، وهو يعطينى الورقة :

ـ انظرى .. لابد من تصريح مثل هذا .

ـ أنا تبع هيئة اليونسكو .

ـ إن شاء الله تكونى تبع هيئة الجمبرى ، لن تمرى بدون تصريح .

حاصرتنى نظرات السائقين ، وبدءوا فى تعليقات مثيرة ، فقلت لهذا المساعد سليل البيروقراطية :

ـ اتصل برؤسائك .

قال بعناد غبى :

ـ أنا رئيس نفسى .

ـ ماذا هناك ؟

عربة جيب مثل سيارتى ، وقفت أمام المساعد ، وأطل منها ضابط شاب ، وسأل السؤال السابق ..

وقف المساعد وقفة عسكرية ، وأدى التحية ، وكرشه يهتز ، وقال :

ـ هذه السيارة تريد أن تمر بدون تصريح .

جاء الضابط إلىّ « هذا لـه قـوام عسكرى » ، وحيّـانى « لابـد أنه عرف من أنا » ..

ـ صباح الخير يا افندم .

ـ صباح النور .

ـ ما المشكلة ؟

بكل كبرياء قدمت له بطاقة هيئة اليونسكو ، وعليهـا صورتـى الجميلة ، وقلت بتأنٍ :

ـ أنا باحثة اجتماعية تبع اليونسكو ، وأريد الذهاب إلـى المزرعـة الخاصة بالهيئة ، الموجودة فى طريق العلاقى .

ابتسم الضابط ، وقال برقة :

ـ أهلاً وسهلاً .

ـ أهلاً بك .

ـ لكن أين تصريح المرور ؟!

« البيروقراطية .. ميراث قديم من أيام الفراعنة » ..

ـ لا أعرف شيئًا عن هذا التصريح .

قال الضابط بهدوء :

ـ ليس هناك مشكلة ، اتبعينى بسيارتك ، وسـنعود إلى أسوان ، وسأستخرج لك التصريح بسرعة إن شاء الله .

قلت بغيظ :

ـ روتين !!

ـ نعم روتين ، لكن لحمايتك ، فأنتِ متجهة إلى منطقة صحراويـة ولابـد مـن تقييد كـل المعلومـات عنكِ ، وعـن سـيارتك ، وعـن مهمتك ، ومكان إقامتك ؛ لإنقاذك إذا حدث شىء ـ لاقدر الله ـ ، وهذه مسألة تنظيمية ، أرجو ألا تثير غضبك .

أقنعنى بمنطقه الهادئ ، فاستسلمت ، وتبعته بسيارتى عائدة إلى أسوان .

وتوقفت سيارة الضـابط أمام محـل لتصوير المستندات ، وطلـب منـى أن أصور بطـاقتى الشخصية ، وبطاقة اليونسـكو ، ورخصـة السيارة ، وشراء ورقة دمغة .

ثم انطلق إلى مبنى قيادة حرس الحدود ..

وذهب الضابط معى إلى الموظف المختص ، وقال له :

ـ خذ أوراقها ، وأعطها التصريح بسرعة .

ـ آسف يا أفندم .. التصاريح لا تخرج إلا بعـد الساعة الثالثـة عصرًا ؛ لأن سيادة المقدم فى مهمة ، ولن يعود قبل هذا الميعاد .

نظر الضابط إلىَّ ، وقال :

ـ من الأفضل لكِ أن تبيتى هـذا اليوم فى فندق ، وتأتى لأخذ تصريحك الساعة الثالثة .

ـ سآتى لآخذ التصريح ، وسأنطلق إلى المزرعة .

ـ لا أنصح بهذا .

ـ لمـاذا ؟

ـ أولاً .. ممنوع المرور بعد الساعة الخامسة ، والظلام فى الصحراء خطر ، والطريق إلى المزرعة يستغرق ساعتين .

« كلهم يضعون العقبات ، لا يعرفون لغة القلوب ، ولهفـة المحبين » .

نظرت إلى الضابط بعناد ، وقلت :

ـ سأعود الساعة الثالثة .

وانطلقت بسيارتى الجيب مسرعة ، وأنـا فـى غايـة الضيق ، فالجميع يتآمرون لكيلا أفاجئ (أيمن) حبيب القلب ..

وعندما تذكرت (أيمن) ، وجدت نفسى أسبح فى عالم أثيرى موشَّى بالأحلام الزاهية ، والأمانى الجميلة ..

وقلبى أصبح نافورة سحرية ، تنطلق منه المشاعر الدافئة .

وتجسد (أيمن) فى خيالى ، شاب رشيق .. طويـل .. لـه ابتسامة عذبة خطف بها قلبى .

إنه يشبه نجوم السينما بملامحه المتناسقة ، وعينيه الواسعتين .

لكم أحبه ! ، وكم فعلت المستحيل لألحق به فى هذه المزرعة !

وذهبت إلى مقهى بجانب المحطة ، وجدت وفدًا من السائحين الأجانب جالسين ..

جلست منفردة ، وجاء صبى المقهى إلىَّ ، رأى بشرتى البيضاء ، وشعرى الذهبى ، وعينىَّ الزرقاوين فحدثنى بالإنجليزيـة ، سائلاً عن طلبى ..

قلت له مبتسمة :

ـ كركديه .

سأل مندهشًا :

ـ مصرية ؟!

ـ نعم .

ابتسم الصبى ، وذهب لإحضار الطلب ..

قضيت الوقت فى تصفح مجلة مصورة ، ثم ذهبت إلى السوق .. الشارع كأنه قطعة قديمة من القرن التاسع عشر .. المحلات الضيقة المملـوءة بالعطـارة والملابـس المزركشـة ، والطواقـى المشـغولة بخيوط ملونـة ، والطرابيش . والأجانب يتسكعون ، والبـائعون يلحُون عليهم بالشراء .

جلست فى مقهى آخر ، ووجـه (أيمن) الوسيم يظهر على شاشة فكرى .

أمى قالت لى : هذا الشاب أنانى ، ومعجب بنفسه ، ولا مكان لأحد فى قلبه ..

سألتها : هل تعترضين عليه ؟!

ـ إنها حياتك ، وأنا أقول رأيى فقط .

أبى كان متحفظاً عندما سألته عن (أيمن) ، وقال لى :

ـ لقد ربيتك على أن تكون شخصيتك مستقلة ، ولكِ رأيك الخـاص ، وهذه حياتك أنتِ حرة فيها ، أما أنا فدورى هو المساعدة فقط ، لا تحديد مصيرك .

هذا رأيهما ، وأنا أصررت على اختياره ، لقد بهرنـى برقتـه ، وبدماثته ، واختياره لكلمات المجاملة .

كلماتـه ساحرة تبعث النشوة فـى روحـى ، ونظراتـه دائمـا مجنَّحة بالحب .

★ ★ ★

فى السـاعة الثالثـة تمامًـا ، كنـت أمـام الموظـف ، أسأله عن التصريح .

قال الموظف بدون اهتمام :

ـ آسف .. لم يأتِ سيادة المقدم حتى الآن .

سألته منفعلة :

ـ ومتى يأتى ؟

انشغل بشىء ما أمامه وقال :

ـ لا أدرى .. لكنه سيأتى إن شاء الله .

ذهبت وجلست فى السيارة ، وأنا أشعر بثقل اللحظات ..

ولم أحصل على التصريح إلا الساعة الرابعة .

وقال لى الموظف ، وهو يعطينى التصريح :

ـ مـن المفضـل أن تـذهبى غدًا لأنـه لا مـرور بعد السـاعة الخامسة .

« لا يعلمون أى حساب لأمور القلوب » .

هكذا فكرت .. وأنـا أنطلق بالسيارة لأكون أمـام البوابـة قبل الخامسة .

نظرِ إلىّ المسـاعد (محمد) « ذو الهيئـة غـير العسـكرية » متسائلاً ، فقدمت التصريح إليه بسرعة ..

فنظر إلى التصريح ، وقال مبتسمًا :

ـ التصريح يبدأ من الغد .

قلت بعناد العاشقين :

ـ لا .. يجب أن أَمُرّ .

قال المساعد « ذو .... » بلهجة ودودة :

ـ سأسمح لكِ بالمرور ، لكن أرجوكِ أن تعودى غدًا فى الصباح ، أفضل لكِ .

بنفس العناد سألته :

ـ لمـاذا ؟!

بصوت ودود وكأنه أب ينصح طفله الصغير ، قال :

ـ الآن لا توجد أى سيارات فى الطريق ، والشمس فى طريقها للمغيب .

وصمت المساعد قليلاً ، وقال لى محذرًا :

ـ وإذا حدث للسيارة شىء فى الطريق ، سيكون الوضع قاسيًا .

بإصرار لا يعرفه إلا من وضح هدفه ، قلت له :

ـ دعك من كل هذا ، ودعنى أمر .

باستسلام ، وليتّقى نظراتى المصوبة إلى كرشه ، قال :

ـ اتفضلى .

انطلقت بالسيارة ، وقلبى يسبقنى ..

سألحق بك يا (أيمن) ، لن تهـرب منـى ، فـأنت سـاكن القلـب ومفجر مشاعر الحب .

وضغطت علـى مغذى الوقـود ، فتحـرك مؤشـر السـرعة إلــىَ ١٢٠ك ..

الطريق خالٍ ، شريط ضيق من الأسفلت ، والجبـال والتـلال على الجانبين .

جبال الجرانيت هذه موجودة منذ زمن سحيق .

وبدأت الشمس فى سحب خيوطها ، وهى تكلل هامـات الجبل بهالات ذهبية .

امتدت يدى إلى مفتاح (الكاسيت) لينطلق صوت العندليب :

اسبقنى يا قلبى اسـبقنى

ع الجنـة الحلـوة اسـبقنى

اســبقنى وقـــول لحبيبى

أنا جاى على طول يا حبيبى

الصوت دافئ ، كأنه خفقات قلبى الملهوف .

ولكن الطريق طويل ملىء بالحفر ، فأخفض السرعة مضطرة ، ثم أعود مرة أخرى للسرعة الكبيرة ، وأعصابى مشدودة .

واختفت الشمس ، وآثارها ..

فأصبح اللون الرمادى سائدًا فى الكون ، وصمت غريب قوى فرض وجوده على كل شىء .

أين هذه المزرعة ؟!

لقد مرّ أكثر من ساعة ، ولم أقابل أى شىء فى طريقى ..

لم أقابل سيارة أو إنسانًا أو جملاً .. أو أى كائن .

يجب أن أصل بسرعة قبل أن يسدل الليل أستاره .

وارتفع مؤشر السرعة .. وعلت دقات قلبى ..

وفجأة رأيت سيارة أمامى ..

ضغطت على (الكلاكس) طالبة من السيارة إفساح الطريق لى ، لكن السيارة لاتهتم بى .

أعطيت إشارات ضوئية ، لكن السيارة لا تهتم بى

بيب ... بيب ... بيب ..

والسيارة لا تعبأ بى ، وأنا لا أخفض السرعة .

وانطلقـت السـيارة بقـوة ، وانحرفـت بهـا يمينًا مثيـرة زوبعة من الرمـال ، واصدمت بكثيـر مـن الحصـى . ولكنـى سيطـرت علـى السـيارة متجـاوزة السـيارة التـى أمـامى ، وانطلقـت مسرعـة ، وأنـا لا أبـالى بصيـاح أو غضـب قـائد السـيارة .

ومـن شدة لهفتـى لـم أسمع الصـوت الـذى انطلـق خافتًا مـن السيارة ، ثم بدأ الصوت يزداد ويزداد ..

ولم أنتبه إلا عندما اهتزت عجلة القيادة فى يدى .

وعندها أدركت أن الهواء يتسرب من إطارات السيارة ، فتوقفت ، ونزلت لأرى ماذا هناك ..

فوجدت الهواء يتسرب من إطارين ، بسبب هذا الحصى الذى اصطدمت به .

ما العمل ؟!

قد أستطيع تغيير إطار واحد ..

وماذا عن الإطار الثانى ؟ والظلام طمس كل المعالم ، والخلاء التهم كل الأشياء !

لا شىء يبين فى هذه الصحراء الممتدة .

والتلال والجبال كأنها مردة يسدون الطريق علىَّ ..

وقلبى يدق عاليًا ..

ونظراتى لا تخترق الظلام الكثيف المتكتل وأدركت أنى لا بد أن انتظر ، وأنا وحيدة بين الليل ... والصحراء .

★ ★ ★

الفصل الثانى

(لقـــاء المحبين)

وَجَفَ قلبى ..

ودبَّت الحركة فى أعضائى ..

أشعلت النور المبهر فى السيارة ، ثم أطفأتـه ، وأضـأت النـور العادى ؛ لأنى سمعت صوت سيارة قادمة .

وقفـت ، وأخذت أشير بيـدى ، ونـاديـت ، فـردَّدت التـلال صـوتى .

نجحت محاولاتى ، فوقفت السيارة ، ونـزل منهـا شـاب طويل أسمر له شارب مميز ، ونظر إلىّ وغمغم :

ـ أنتِ ؟! كان يجب أن يحدث لكِ هذا .

شعرت بنفور غريب منه ..

« لمـاذا يحدثنى هكذا ؟ »

سألنى وهو متجهم :

ـ ماذا حدث ؟

أشرت إلى السيارة ، وقلت :

ـ فرغ الهواء من إطارين .

وكأنه تذكر شيئًا ، فتفحصنى ، وسأل :

ـ من أنتِ ؟ وإلى أين أنتِ ذاهبة ؟

بعصبية أجبته :

ـ يا أستاذ .. هل تستطيع أن تساعدنى أم لا ؟

بعفوية وتلقائية أجاب :

ـ طبعًا أستطيع .. هيا هاتى مفتاحًا لفك الصواميل .

أجبته وكأنى أعتذر :

ـ ليس معى .

قال ساخرًا :

ـ نعم ؟! تسيرين بدون عدة فى الصحراء .

ثم هز رأسه ، وقال لى :

ـ لابد أن هذه أول مرة تأتين فيها .

صَمَتُّ ، ومشاعر الضيق تتجمع فى صدرى ضد هذا الشاب .

ولكنه ذهب إلى سيارته ، وأحضر المفتاح والكوريك ، ثم رفع السيارة بالكوريك بعد أن فك الصواميل ، وأخرج الإطارين .

ثم سألنى :

ـ هل معك إطار أم اثنان ؟

ـ واحد فقط .

أضاء نور سيارتى المبهر ، وأيضًا أضاء نور سيارته المبهر .

ثم نظر للإطار ، وقال مبتسمًا :

ـ من حسن حظك أن إطار سيارتى من نفس النوع ، سأعطيه لكِ ، وآخذ إطارك بدلاً منه .

قلت باقتضاب أشكرك :

قام بتغيير الإطارين بمهارة ، وسألنى :

ـ هل أنتِ وحدك ؟

ـ لماذا تكثر من الأسئلة ؟

اقترب منى ، وأصبحت سابحة فى الضوء معه .

والظلام حولنا .. وكأننا ممثلان على مسرح ، والأضواء مركزة عليهما .

قال لى بلهجة غريبة :

ـ فتاة جميلة وحيدة فى الصحراء .. ألا يثير هذا التساؤل ؟

قلت متحدية :

ـ تساؤل من ؟

هرش رأسه ، وهو يبتسم :

ـ كل من لديه نظر ، كيف سمحوا لكِ بالسير ليلاً فى الصحراء ؟

وإلى أين أنت ذاهبة ؟

ومن هو هذا المحظوظ الذى ...

وقبل أن يكمل أسئلته المتلاحقة انطلقت بالسيارة وتركته يضحك متعجبًا .

رأيت سيارته تتبعنى ولكن ليس بنفس سرعتى ، فهو ليس لديه حبيب يريد الوصول إليه .

بعد فترة .. لاحت المزرعة عن بعد ..

لمحت ضوءًا فيها ..

كانت غارقة فى الصمت ..

ودخلت بالسيارة ، وضغطت على (الكلاكس) ..

خرج شاب ، وصاح :

ـ من هناك ؟ المهندس ماجد ؟

تقدمت بالسيارة وسط الأشجار حتى اقتربت من الشاب ، الذى نظر إلىّ غير مصدق ، وسألنى :

ـ ماذا تريدين ؟ ومن أنتِ ؟

« لا أحد يعرف أنى (شهيرة) خريجة الجامعة الأمريكية وباحثة فى هيئة عالمية » .

سألته :

ـ هل المهندس (أيمن) موجود ؟

ـ نعم ، موجود .

ـ أين هو ؟

أشار الشاب إلى حجرة مضاءة تبعد قليلاً ، وقال :

ـ إنه هناك .. لكن من أنتِ ؟

لم أعره التفاتًا ، وسرت بالسيارة ، وسمعته يصيح خلفى .

وأخيرًا رأيت (أيمن) ، وقد خرج من الحجرة ليرى ماذا هناك ..

وصاح متسائلاً :

ـ المهندس (ماجد) ؟

« من هو (ماجد) هذا الذى يتساءل عنه الجميع » ؟..

أوقفت السيارة ، ونزلت ، وأسرعت نحوه ملهوفة وعيناى تتألقان بالفرحة .

رآنى وصاح فرحًا : (شهيرة) !

وجرى نحوى ..

التقت مشاعرنا الفوارة ..

ـ (أيمن) !

بكل الشوق نطقتها ..

ـ (شهيرة) !

بكل الحب همس .

ثم عانقت أصابعه أصابعى ، وهو ينظر إلى الشاب الذى جاء خلفى ..

وقال (أيمن) له : إنها خطيبتى يا عبد المنعم .

وأخذنى إلى المكتب ، وجمع شتات نفسه ، وسألنى :

ـ ما الأمر ؟!

قلت مندهشة :

ـ أى أمر ؟!

ـ مجيئك !!!

قلت مندفعة ، وكأنى أزف إليه أجمل خبر سمعه فى حياته :

ـ سأعمل معك هنا ، سأعمل بحثًا عن البدو الرحل .

لاحظت فتورًا غريبًا ، وهو يسأل :

ـ لماذا لم ترسلى إلى ؟

بنفس اللهفة المسيطرة علىّ أجبته :

ـ لأفاجئك حبيبى .

ـ لا أحب المفاجآت .

سألته بقلق :

ـ هل وجودى لا يسعدك ؟

وقبل أن يجيب ، دخل الشاب الذى أصلح الإطارين ..

صاح (أيمن) :

ـ أهلاً (ماجد) .

ـ أهلاً (أيمن) .

أشار (أيمن) نحوى ، وقال :

ـ أقدم لك الآنسة (شهيرة) خطيبتى ، وهى باحثة قادمة لمهمة .

ثم أشار (أيمن) إلى (ماجد) قائلاً :

ـ (ماجد) مهندس زراعى ، وهو مدير المزرعة هنا .

صافحنى (ماجد) قائلاً :

ـ أخيرًا عرفت من أنتِ ؟ ولماذا أنتِ قادمة ؟

ثم نظر إلى (أيمن) ، وقال له والابتسامة تملأ وجهه :

ـ خطيبتك تحبك حبًا كبيرًا ؛ لأنها كانت تقود السيارة بسرعة كبيرة لتجىء إليك ، أهنئك يا (أيمن) .

ثم التفت إلىّ ، وقال :

ـ وأهنئك يا آنسة (شهيرة) .

والآن .. هل تناولتما العشاء .

قال (أيمن) :

ـ كنا فى انتظارك .

ـ سأذهب لأشرف على إعداد العشاء ..

وتركنا وانصرف .

بدون وعى قلت :

ـ يا له من ثقيل !!

نظر إلى (أيمن) مستنكرًا ، وقال :

ـ (ماجد) ؟! لا تحكمى بسرعة على الآخرين ، إنـه مهنـدس ممتاز .

ـ أتكلم عن الشخصية .

قال (أيمن) وهو يدافع عنه بحرارة :

ـ شخصيته قوية ومؤثرة .

ـ وهذا ما يجعله ثقيلاً .. قال (أيمن) ، وهو مغتاظ :

ـ من المفضل احتفاظك برأيك لنفسك ، لكن هل تعرفينـه من قبل ؟

ـ نعم رأيته منذ نصف ساعة .

وقصصت عليه ما حدث ..

فقال معلقًا :

ـ كان شهمًا معك .

ـ نعم .. ولكنه لم يكن رقيقًا .

ـ أنت حكمك غير صائب .

وقبل أن أردَّ عليـه ، اقتحم صوت (مـاجد) جلستنا ، وهو يدعونا للعشاء .

كانت حجرته فاخرة ومتسعة .

تناولنا العشاء فى حجرته ، وعاد (أيمن) إلى مرحه وحنانـه وكان يناولنى الطعام بيده ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ خذى هذه من يدى يا (شهيرة) .

و(ماجد) يأكل وهو ينظر إلينا مبتسمًا .

وصدمتنى ابتسامته ، فقد شعرت أنها ابتسامة ساخرة ..

فازددت نفورًا منه .

وبعد العشـاء ..

قال (أيمن) :

ـ هناك مشكلة .. أين تبيت (شهيرة) ؟ مع العلم أنه لا توجد أى غرفة خالية .

وقتها شعرت أنى أجلس فوق صفيح ساخن .

هـــذا تعبيـــر لا أدرى أيـــن ســـمعته ، ولكنـــه كـــان يصـــف شعورى بدقـــة .

★ ★ ★

الفصل الثالث

(فى قلب الصحراء)

استيقظت من النوم ..

جالت نظراتى فى الحجرة التى أنام فيها .

إنها حجرة واسعة .. نظيفة .. فاخرة بالقياس إلى المكان .

وعادت إلى ذهنى كل ذكريات المساء ..

عندما سأل (أيمن) :

ـ أين تنام (شهيرة) ؟

وأجاب (ماجد) كأنه فكر فى كل شىء :

ـ من اليوم ستكون حجرتى هى حجرة الآنسة (شهيرة) ، أما أنا فسأشاركك حجرتك بعد إذنك طبعًا .

وبدون أن ينتظر أى إجابة ، قام بنقل كل حاجياته إلى حجرة (أيمن) ونقل حاجياتى إلى حجرته ..

هذا شاب متحضر ..

لأنه يعرف من (شهيرة) ..

بالرغم من أنه شاب غير عادى ..

فوجهه صارم ، وحديثه قليل ، وتصرفاته نبيلة ..

ما هذا ؟! كيف تفكرين يا (شهيرة) فى شاب آخر غير (أيمن) ؟! ألا ترين أنه لا يمتلك أى وسامة ، وبالقياس إلى (أيمن) عليه أن يتوارى خجلاً ؟!..

وعندما ظهر (أيمن) فى شاشة الذاكرة رقت المشاعر ، وفاض الحب ، وسبحت فى عالم أثيرى بهيج ، لكن مشاعر أخرى داهمتنى ..

فعلىَّ أن أنجز مهمتى بسرعة ، وهى مهمة محددة مكلفة بها من هيئة اليونسكو ؛ مهمة دراسة مجتمع البدو فى صحراء العلاقى .

فنفضت عنى كل الأفكار العاطفية ، ونهضت مسرعة ، وارتديت ملابس جنز ، وفتحت باب الحجرة ..

فرأيت (أيمن) و(ماجد) جالسين فى ظلال الشجر يحتسيان الشاى ، وما إن رآنى (أيمن) حتى جاء مرحّبًا بابتسامته العذبة ، وهمس لى :

ـ كيف أصبحت أميرتى ؟

هذا ما أحبه فيه ، حتى صوته يدغدغ مشاعرى .

قلت له مبتسمة :

ـ صباح الخير يا (أيمن) .

ـ هل تتنازل أميرتى وتتناول الإفطار ؟

وتمنيت أن يناديني بكلمة أميرتى طوال الوقت ؛ فهذا يرضى الغرور الكامن « فى تلافيف المخيخ » .

فقلت مستزيدة :

ـ أنت تدللنى .

ـ ولِمَ لا ؟ وأنتِ قطتى .

« قطتى » القطة ، حيوان مدلل صغير تافه ، لا ... لا ... أميرتى أفضل .

قلت له :

ـ لا أحب كلمة قطتى هذه .

ضحك وكأنه يعتذر .

وجلسنا مع (ماجد) حول مائدة الإفطار .

أثناء تناول الطعام ، قلت :

ـ اليوم أريد أن أؤدى مهمتى .

سألنى (ماجد) باهتمام :

ـ وما هى مهمتك بالضبط ؟

هكذا من غير أميرتى أو حتى قطتى أو حتى آنسة ، هذا شاب لا يعرف فن الأتيكيت ، ولا يعرف من هى (شهيرة) .

وَصمَتُ قليلاً ليدرك خطأه ، وعندما طال الصمت بدون فائدة ، قلت :

ـ المهمة هى دراسة البدو فى صحراء العلاقى .

قال بدون اهتمام :

ـ توجد قرية العلاقى بالقرب منا .

قلت بفذلكة ليعرف خطورة المهمة « الملقاة على عاتقى » :

ـ لا أريد مجتمعًا مستقرًا ، أريد بدوًا فى الصحراء ..

قال (ماجد) :

ـ هذه تحتاج إلى دليل للصحراء ، وأنا أعرف دليلاً أثق فيه .

وتدخل (أيمن) ليثبت وجوده ، وقال :

ـ الأمر لا يحتاج إلى دليل ، فبالقرب من منطقة بير أبو حبال توجد مجموعة بدو رُحّل .

لكن (ماجد) قال بلهجة حاسمة :

ـ لن أسمح بالذهاب بدون دليل .

هذا الشاب يتجاوز حدوده ، ألا يكفى أنـه لا يخاطبنى بالألقاب اللائقة ، بل هو يسمح ولا يسمح ..

قلت له « ليعرف من أنا » :

ـ هذه المهمة تخصنى أنا ، وأنا التى أحدد ماذا يصلح لمهمتى ، وأرفض أى تدخل ، أو فرض رأى .

قال (أيمن) بسرعة :

طبعًا ... طبعًا يا أميرتى .

ابتسمت .. وطبعًا معروف لماذا ابتسمت ..

ولكن (ماجد) قال بهدوء :

ـ لو سمحتِ ، دعينى ألقى نظرة على الأوراق التى معك .

بكل كبرياء ، وبأطراف أصابعى قدمت الأوراق له ، وأنفـى شامخة « لا أدرى كيف ، ولكنى قرأتها هكذا فى إحدى القصص » .

عرف (ماجد) من الأوراق أنى مكلفة بالدراسة والبحث على أن تكون إقامتى فى المزرعة ، وليس لى أى صلة إدارية بالمزرعة .

أعاد (ماجد) الأوراق إلىّ ، وقال :

ـ بالرغم من هذا ، أرجو ألا تتحركى بدون دليل ، ونستطيع الذهاب اليوم للاتفاق معه فـى قريـة العلاقى ، وأيضًا تستطيعين جمع معلومات كافية عن مجتمع البدو منهم .

لم يتركنى (أيمن) لهذا الغول الذى يرفض الهزيمة ، وقال له :

ـ ليست هناك مشكلة يا (ماجد) فالمنطقة قريبة جدًا .. مجرد ساعة ذهابًا ، وأخرى إيابًا ، وأنا أعرف الطريق جيدًا ..

رأيت أن أحسم الموقف ..

فوقفت مثل (نابليون) ، وهو يعطى أمرًا بزحف الجيوش ، وقلت :

ـ إذن ... هيا بنا .

اكتسى وجه (ماجد) بالقلق ، وهو يرى (أيمن) مندفعًا خلفى ، فقال محاولاً احتواء الموقف:

ـ وبأى سيارة ستذهبان ؟

قلت وأنا مازلت فى هيئة (نابليون) :

ـ بسيارتى طبعًا .

قال (ماجد) ببساطة « لأنه لم يتأثر بالطريقة النابوليونية » :

ـ هذه لا تصلح للقيادة فى الصحراء .

سألته بصرامة :

ـ لمـاذا ؟

ـ لعدم وجود « فتيس غرز » فيها ، فـالأرض الصحراويـة .. أرض رملية متحركة .

تدخل فتاى المحبوب لإنقاذ هيئة (نابليون) ، وقال :

ـ نأخذ سيارة المزرعة .

ـ فى هذه الحالة لا بد من مجيئى معكما .

صمتُ ، وصمَتَ (أيمن) .

هذا الشاب لايُهزم بسهولة ، وهو يفرض وجوده علينا ، فقلت لـه ، وأنا أصعد إلى أعلى درجات الكبرياء :

ـ سيسعدنى وجودك معنا يا باشمهندس .

وعلى الفور ، أخذ (مـاجد) زمـام المبـادرة ، ونـادى علـى (عبد المنعم) ، وطلب منه وضع ثلاث بطاطين فى السيارة .

صاح (أيمن) فى محاولة لإثبات وجوده :

ـ لا داعى فنحن لن نبيت .

ـ يجب أن نكون مستعدين لكل الاحتمالات .

ثم التفت (ماجد) إلى (عبد المنعم) ، وطلب منه ملء السـيارة بالبنزين ، وتزويد السيارة بجركن آخر مملوء بـالبنزين ، وأيضًـا جركن ماء ، ووضع خبز وملح وسكر وشاى وعلب مربى وجبنـة وحلاوة طحينية وملاعق وسكاكين وأكواب .

« لـم يلفـت نظرى فى كل مـا قالـه (مـاجد) غير الملاعـق والأكواب والسكاكين ، فهذا يـدل على أنه متحضـر ..بالرغم من نسيانه للشوك والفوط » ..

مازال (أيمن) يحاول إثبات وجوده ، ولذلك قال :

ـ لماذا يا (ماجد) ؟ قلت لك مشوار لمدة ساعة .

ـ قلت لك يجب أن نكون مستعدين لكل احتمال .

وقال (عبد المنعم) متجهمًا :

لاتوجد مواد تموينية غير علبـة جبنـة مثلثات ، وكيس خبز افرنجى صغير والسكر والشاى .

هتف (أيمن) :

ـ هذا يكفى ، وقد لا نستعمل أى شىء من هذا .

التفت (ماجد) إليه ممتعضًا ..

طبعًا .. لم تغب نظرات (ماجد) عن وعيى .

وتمنيت ألا يذهب معنا ؛ فهو شخص غير مريح ، وقائد بالفطرة .

وحاول (ماجد) إقناعى بتأخير الذهاب ليوم واحد لعمل الاستعداد الكافى ، لكنى رفضت بإصرار عنيد ، وكان فتاى المحبوب سندًا قويًا لى .

وأخيرًا .. استسلم (ماجد) .

استسلم ؟ إنه ابتسم ساخرًا ..

وقال لـ (عبد المنعم) :

ـ فى حالة تأخرنا يوم واحد ، عليك إخبار رجال الحدود بأننا ذهبنا فى طريق بير أبو حبال .

أسرع (أيمن) ، وجلس أمام عجلة القيادة فى السيارة ، وجلست أنا بجواره ، أما (ماجد) فجلس فى الخلف .

انطلقت السيارة ، وكان (أيمن) ينضح بالسرور والثقة ، وهو يقود السيارة .

وسأله (ماجد) :

ـ هل تعرف الطريق جيدًا ؟

ـ طبعـًا .

وقطعت السيارة الطريق الممهد حتى منطقة بير أبو حبال .

وبعد ذلك انحرف (أيمن) بالسيارة يسارًا مخترقًا الصحراء ، وقتها شعرت أنى فى قلب مغامرة حقيقية ، خاصة عندما رأيت السيارة وكأنها نقطة تتحرك داخل الرمال ، والجبال تحيط بها من على بعد .

جبال جرانيت شاهقة ملونة ، وكأن هذه الجبال العملاقة تسخر من كل متحرك أمامها .

وأخذ (أيمن) يشرح لى المنطقة ، ويعرفنى بجبال الجرانيت .
وطلب (ماجد) من (أيمن) أن يسير بجانب الجبال ؛ لأن الأرض تكون أكثر صلابة .

فضحك (أيمن) ساخرًا ، وقال :

ـ معنا فتيس غرز .

بعد مرور ساعة أعلن (ماجد) عن وجوده قائلاً :

ـ إنى لا أرى أى آثار لأحد ، أو آثارًا توضح أن الطريق مستخدم .

قلت ساخرة :

ـ أو حتى « آثار الحكيم » .

ضحك (أيمن) قائلاً :

ـ حلوة .. حلوة !

أما (ماجد) فإنه لزم الصمت .

والتفت (أيمن) إليه ، وقال له كالمعتذر :

ـ اطمئن ، بعد قليل سنصل إلى هدفنا .

واستمرت السيارة فى سيرها السريع بين سعادة (أيمن) ، واطمئنانى ، وقلق (ماجد) ..

واتسع الوادى أمـام السيارة ، وصحت فرحة عندمـا رأيت قطيعًا من الغزلان :

ـ غزلان .. غزلان !

ضحك (أيمن) وانطلق خلف الغزلان التى ركضت بسرعة ، و(أيمن) يلاحقها ضاحكًا ، وأنا أشجعه ، و(ماجد) صامت .

هربت الغزلان بتسلق الجبال .

وانطلقت السيارة فى الوادى الممتلئ بالشوك ، ونباتات صحراوية كثيرة .

قال (ماجد) « مذكرًا بوجوده » :

ـ هذه المنطقة غير مطروقة يا (أيمن) .

ـ بالعكس ، سنجد ضالتنا بعد قليل ، ألا ترى النباتات ؟ هذا ما يسعى إليه الرعيان .

ـ لا .. إن الرعيان يسعون خلف الحشائش لا الأشواك .

ـ كن مطمئنًا ، سنجدهم بعد قليل .

ـ لقد مر الآن ثلاث ساعات .

ورأيت أن أهاجمه ليعلن ضعفه ، فسألته :

ـ هل أنت خائف يا باشمهندس ؟

ـ نعم .. خائف عليك ..

وصمت ، كأن لسانه قد استدرج .

أما أنا فقد شعرت بسعادة غريبة لاكتشافى أن هذا الكائن الصلب يحتوى نبعًا من الحنان ..

ونظر (ماجد) إلى عداد السيارة ، فلاحظ وجود ضوء أحمر فى التابلوه فسأل (أيمن) :

ـ ما هذا الضوء الأحمر ؟

ـ الدينامو لا يعمل .

قال (ماجد) ، ومشاعر القلق تسرى فى صوته :

ـ معنى ذلك أننا نسير على قوة البطارية فقط .

ـ هذا صحيح .

بصوت كالرعد ، قال آمرًا :

ـ توقف يا (أيمن) .

ـ لمــاذا ؟

ـ لأن البطارية ستنتهى هكذا ، ولن تسير السيارة .

ـ سنسير حتى تتوقف السيارة ، وقد ندرك البدو .

بدأت أشعر بالقلق ، فالاثنان يتصارعان بالكلام ..

وصرخ (ماجد) فى (أيمن) ، وهو يهم بالقفز عليه :

ـ قلت لك : توقف .

فتوقف (أيمن) ، وهو ساخط ، وحسنًا فعل ، فالمؤكد أن (مـاجد) كان سيتصرف بعنف .

نزل (ماجد) و(أيمن) من السيارة ..

وفحص (ماجد) « الفيوزات » فوجد فيوز الدينامو قد انصهر ، فاستبدل به آخر ، واقترح شرب شاى والراحة قليلاً .

لكن (أيمن) أصر على الاستمرار ..

وأدار (أيمن) مفتاح الكونتاكت لكن المارش لم يدر .

جرَّب (أيمن) مرة أخرى ، ومرات ، ثم قال :

ـ لا مفر .. لابد من دفع السيارة لأن البطارية أصبحت ضعيفة .

قال (ماجد) :

ـ انزل ، ودع (شهيرة) تقُد ، ونحن ندفع السيارة .

وبدأ (ماجد) و(أيمن) يدفعان السيارة حتى خارت قواهما .

وقال (ماجد) باستسلام غريب :

ـ لا فائدة .. لقد فرغت البطارية .

قال (أيمن) عاتبًا :

ـ أنت من جعلتنا نتوقف .

غمغم (ماجد) :

ـ كنا سنتوقف فى كل الأحوال .

نزلت من السيارة ، وأنا أسيرة القلق ..

سألت : ماذا سنفعل ؟

أجاب (ماجد) :

ـ نفتح باب السيارة الخلفى ، ونجلس فى ظلال جبل ، وننتظر فرج الله .

(أيمن) بثورة :

ـ تقول هذا ببساطة ؟!

(ماجد) بهدوء مستسلم :

ـ هل عندك حل آخر ؟

(أيمن) مستمرًا فى ثورته ، قال :

ـ لا .. ولكنك كنت السبب فى توقفنا .

ما زال (ماجد) فى حالة الهدوء الغريبة ، وقال :

ـ هل كنت تريد تدمير البطارية

(أيمن) مهاجمًا :

ـ كنت أريد اللحاق بالبدو .

ـ أين هم هؤلاء البدو ؟

ـ بالقرب من هنا .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ طبعًا .

كان الحوار بينهما أشبه بالمبارزة ..

لكن مبارزة معروفة النتيجة مسبقًا لأن (أيمن) كان ثائر الأعصاب ..

و(ماجد) هادىء هدوء من يعرف كل النتائج .

« وثائر الأعصاب دائمًا يفقد مباراته » ..

رأيت (ماجد) يبتسم ابتسامته الساخرة ، فثارت أعصابى أنا أيضًا ، وقلت له غاضبة :

ـ لا تبتسم هذه الابتسامة الساخرة .

لم يلتفت إلىّ ..

وأخذ بطانية وفرشها فى ظل الجبال ، وأخرج عدة الشاى وجلس ، ونادى علينا للجلوس معه ..

فتقدمنا متثاقلَين ..

طلب (ماجد) من (أيمن) أن يحفـر حفـرة صغيرة ، وذهب هو لالتقاط بعض أغصـان الشجر الجافـة ، وبعض الأشـواك ، وأشعل نارًا صغيرة لإعداد الشاى .

ورأيت (أيمن) مستمرًا فى تأكيد ذاته ، لذلك قال :

ـ أنا متأكد من وجود البدو قريبًا من هنا .

لم يفقد (ماجد) هدوءه المثير ، وقال :

ـ إذا كانوا قريبين ، سيكون هذا من حسن حظنـا ، وعلينـا أن نُعَرِّفَهُم بوجودنا .

سألت بلهفة : كيف ؟

ـ نشرب الشاى أولاً ، وبعد ذلك سأتكفل بالأمر .

وبعد شرب الشاى ..

ملأ (ماجد) حقيبة بالأغصان والشوك .

وتسلق جبلاً مرتفعًا حتى وصل إلى قمته ..

فصنع دائرة ضيقة من الأحجـار الصغيرة ، ثـم أشـعل النيران فى الأشواك والأغصان ، وانتظر حتى اطمأن على ما صنع ، ونزل .

واجهته متسائلة :

ـ ماذا صنعت ؟

ـ أشعلت نارًا لكى يراها أى أحد ؛ فيسعى لنجدتنا .

قال (أيمن) بشكل اتهام :

ـ ولكنى لا أرى إلا دخانًا ؟

ـ إذا رأى أى إنسان هذا الدخان ، سيأتى لنجدتنا .. دعونا ننتظر ونأمل ونتمنى ..

وجلسنا فى ظل الجبل ..

ودبيب الوقت يمر بطيئًا ثقيلاً فوق جلودنا ..

ثانية ... ثانية ..

★ ★ ★

الفصل الرابع

(المــوت أو الحيــاة)

ـ ألا نتناول الغداء ؟

سأل (أيمن) ووجهه مكفهر ..

تركزت نظراتنا على (ماجد) تطالبه بالإجابة ، « فى وقت الشدائد نلجأ إلى القائد الحقيقى ، وأنا تخليت عن هينة (نابليون) التى ابتلعتُها الصحراء ، سأعود إليها فى النادى إن خرجت بسلام » ..

قام (ماجد) إلى السيارة ، وأحضر علبة الجبن المثلثات وكيس الخبز الإفرنجى .

وقــال :

ـ كل منا له رغيف واحد ، وقطعة جبن .

اعترض (أيمن) ، وهو يرفع الرغيف الصغير أمام عينى (ماجد) قائلاً :

ـ هل يكفى هذا الرغيف ؟

ـ عند الضرورة يكفى .

قلت لأذكرهما بوجودى :

ـ وهل هناك ضرورة ؟

ابتسم (ماجد) ، وأجابنى :

ـ ماذا تسمين ما نحن فيه ؟

ضحكت ، وقلت :

ـ مغامرة لذيذة .

قال (أيمن) ، وهو يتميز غيظًا :

ـ نعــم ؟

أما (ماجد) فقد علَق مبتسمًا :

ـ عليكِ الاحتفاظ بهذه الروح .

اندمجنا فى مضغ الطعام ببطء ، ثم تناولنا الشاى .

نظر (أيمن) إلى ساعته ، وقال :

ـ الساعة الآن الرابعة ، ولم تظهر أى بادرة أمل .

قلت وأنا أعيش المغامرة :

ـ دعنا نر ماذا يحدث لنا داخل هذه الصحراء .

وقف (ماجد) ، وقال :

ـ سأصلى العصر .

نظر إليه (أيمن) نظرات غريبة ، وقال له :

ـ ادعُ الله لإنقاذنا .

ـ ولماذا لا تصلى أنت وتدعو الله كما تريد ؟

ـ أنا أصلى فى المسكن فقط .

ـ الله فى كل مكان ، وجعل لنا الأرض كل الأرض مسجدًا وطهورًا .

اختفى (ماجد) بعض الوقت ، ثم عاد ..

سألته :

ـ هل صليت ؟

ـ الحمد لله .

ـ هل دعوت الله ؟

ـ هو مُطلع ، ورجوته أن يلطف بنا فى قضائه .

ـ ألا تشعر بالضيق مما نحن فيه ؟

ـ المؤمن كل أمره خير ، فإذا ابتلاه الله ببعض الشدائد ، وصبر عليها ظَفِرَ ، وإذا أعطاه الله خيرًا وشكَره زادَهُ .

إجاباته كلها مقنعة ، وصوته دافئ ، كنت أتمنى أن أستمر فى الحديث معه ، لكنى رأيت نظرات (أيمن) غير راضية ، فصَمَتُّ مراعاة لشعوره « فأنا أعرف قواعد اللياقة جيدًا » .

نظر (أيمن) إلى الجبل ، وقال لـ (ماجد) :

ـ إنى لا أرى أى دخان فوق الجبل .

قال (ماجد) بهدوء :

ـ خمدت النيران ، بعد ساعة سأذهب لتجديدها .

ساد الصمت بيننا ، فقلت :

ـ أريد أن أتجول فى هذه التلال .

قال (أيمن) :

ـ سأرافقك .

علَق (ماجد) :

ـ لا تبتعدا كثيرًا ، واجمعا أى أخشاب تجدانها .

صعدنا فوق تل صغير ، وفوجئت بسعادة غريبة تنتابنى ، ظهرت فى ضحكات صغيرة ؛ لأنى رأيت غزالة صغيرة ضعيفة ترضع من أمها .

تحركت مشاعر عذبة فى داخلى ، وانساب تيار من الحنان الصافى فى قلبى .

وشعرت برغبة عارمة فى حمل الغزالة الصغيرة والحُنُوّ عليها ..

تفجرت عواطف الأمومة الكامنة ، وقلت بعذوبة : ما أجمل الغزالة الصغيرة !

قال (أيمن) :

ـ سأجرى لأحضرها لكِ .

وجرى مندفعًا ، تنبهت الغزالة الكبيرة ، فَجَرَتْ هاربة .

وحاولت الصغيرة الجرى ، ولكنها تعثرت ، وأمسكها (أيمن) وهو يضحك شاعرًا بالفوز ، وأحضرها إلىّ وهو فى غاية السرور « أخيرًا أثبت وجوده » .

أسرعتُ إليه ، وأحَطتُ الغزالة الصغيرة بذراعى ، ودللتها بأصوات منغمة « ننه نام .. وادبح لك جوزين حمام » لا أدرى « كيف قلت هذه الأغنية التى تسللت إلى لسانى من منطقة بعيدة فى الشعور » .

قبّلت الغزالة ، وتأملتها ، وقلت لـ (أيمن) :

ـ انظر إلى الصغيرة الحبوبة .

فاجأنى (أيمن) بقوله :

ـ سنتعشى لحمًا .

روّعنى ما يقصد ، فسألته مستنكرة ليتراجع :

ـ ماذا تقصد ؟

ببساطة أوضح عن هدفه :

ـ سنأكل هذه الغزالة .

انقبض قلبى ، وقلت بدون وعى :

ـ لا .

ونظرت فورًا نحو الغزالة الكبيرة ، فرأيتها تقف بعيدًا ، وتنظر إلىّ ..

قرأت فى عينيها رسالة استغاثة الأم الملهوفة .. وصلت الرسالة بكل حروفها المسترحمة إلى قلبى .. رسالة كلها مشاعر رحمة وحنان ورجاء بدون أى كلمة .

التقت عيناى بعينى الغزالة ..

يا للّه !! ما هذا الحزن العميق الذى يسكن العينين ؟!

ونظرت إلى عينى الغزالة الصغيرة ، فرأيت نفس الحزن العميق !!

قبلت الغزالة الصغيرة وأطلقتها ..

سارت الغزالة متعثرة نحو أمها ، ووقعت ، ثم قامت وركضت نحو أمها .

وأنا انظر إليها وكنت فى حالة وَجْدٍ وذوبان عاطفى .

انطلقت الغزالتان بعيدًا ، وأنا أحرك يدى لهما مودعة ..

قال (أيمن) :

ـ (ماجد) سيغضب إن عرف .

نظرت إليه ، ومشاعر الأمومة العذبة تتلاشى تدريجيًا سألته :

ـ لمــاذا ؟

ـ كان يفضل ذبحها .

وَقْعُ الكلمة أصابنى بنفور ، فَصِحتُ فيه ..

ـ اصمت ..

لم يفهم ما كنت فيه من حالة وجدانية ، فسألنى مندهشًا :

ـ ماذا بك ؟!

ـ تكلم فى شىء آخر .

ـ هيا نَعُد .

كان (مــاجد) قد جمع كمية أخرى من الأخشاب ، ووضع بعضها فى الحقيبة .

وعندما جلسنا بجانبه ، قال (أيمن) مندفعًا :

ـ لقد اصطدت غزالةً .

ـ أين هى ؟

ـ أطلقتها (شهيرة) .

« ماذا يريد (أيمن) بالضبط ؟! هل يريد إثبات وجوده ؟ أم يريد إظهارى بشكل سىء ؟! هذا الشاب لا يقرأ الأحاسيس جيدًا .. »

سأل (ماجد) :

ـ لمــاذا ؟

قلت مدافعة :

ـ إنها غزالة صغيرة وليدة كانت ترضع من أمها .

صمت (ماجد) كعادته ، فلاحقه (أيمن) متسائلاً :

ـ هل أنت غاضب ؟

ـ لمــاذا ؟

ـ لأن (شهيرة) أطلقت الغزالة .

ـ كنت سأغضب لو أحضرت (شهيرة) هذه الغزالة .

نظر (أيمن) إلينا ، ولسان حاله يقول إننا معتوهان .

أما (ماجد) فقال لـ (أيمن) :

ـ إن (شهيرة) تعاطفت مـع الغزالـة الأم ، والأمومـة عاطفـة سامية .

تمنيت لو قبلته فى هذه اللحظة ..

« هذا الشاب يمتلك حسًا مرهفًا .. يقرأ به أدق المشاعر فى نفوس الآخرين » .

بعد قليل ، وقف (ماجد) قائلاً :

ـ سأتسلق الجبل مرة أخرى .

وفوق الجبل أشعل النيران ، وكثّف من كمية الأخشاب ، ونظر نحو الشمس الشاحبة ، وهى تسحب خيوطها الذهبية من فوق قمم الجبال .

ونزل متأنيًا خطوة خطوة .

واختفت الشمس ، وقد اصطبغ الكون بلون رمادى رائق ..

واتخذت الجبال الجليلة شكلاً شاعريًا أخّاذًا .

سأل (أيمن) : ماذا سنفعل ؟

أجابه (ماجد) : الصبر والانتظار والتمنى والرجاء ..

ـ لا شىء لديك غير ذلك .

ـ هل لديك أنت شىء آخر ؟

★ ★ ★

سألت : كيف سننام ؟

حدّق (أيمن) فى (ماجد) كأنه يتهمه ، أو يضع فوق كاهله أعباء ثقيلة ..

قال (ماجد) ببساطة :

ـ (شهيرة) ستنام داخل السيارة ، ومعها بطانية ، وأنا وأنت سيستخدم كل منا بطانية للنوم والغطاء ؛ لأن الجو فى آخر الليل يكون باردًا .

ـ نعم .. لكن أين سننام ؟

ـ هنا على الرمال .

ـ وهل نستطيع ؟

ـ علينا أن نتكيف .

ـ ومتى سنتعشى ؟

ـ الأفضل أن تنام خفيفًا ، ولنخرج البطاطين الآن ، ونعد مكان النوم ، وكذلك (شهيرة) تعد مكان نومها ، وبعد ذلك نوقد النار ، ونعد الشاى ونتسامر .

كنت أستمع لهذا الحوار بينهما ، وشىء غريب من التحول يحدث فى داخلى تحول عاطفى بالنسبة للشخصين .

★ ★ ★

أسدل الليل ستائره السوداء الكثيفة .. ورأيت منظرًا لم أره من قبل ..

صفحة السماء مليئة بالنجوم التى تنبض بالضياء .

لم أر النجوم أبدًا بهذه الكثرة ، وهذا الجمال ..

فهتفت : سبحان الله !

التفت (أيمن) و(ماجد) إلىَّ متسائلين ..

قلت : منظر جميل .. النجوم تنظر إلينا من عليائها .

فوجئت بـ (ماجد) يغمغم :

ـ والمأساة أنها ستطل علينا يومًا ولن تجدنا .

تعجبت ؛ هذه النغمة لا تتلاءم مع هذا الشاب ؛ فسألته :

ـ لماذا قلت هذا الكلام ؟

ـ هذا كلام أديب مصر العملاق نجيب محفوظ .

وأدرك (ماجد) أن كلماته أثارت مشاعر الأسى والخوف فينا ، فرأى أن يبدد تلك المشاعر ، وأخذ يحكى لنا حكايات طريفة ومسلية عن حياته وهو طفل فى قرية من قرى طنطا ، ونجح فى وضع الابتسامة على الشفاه ، إلى أن ساد الصمت مرة أخرى .

وجدت نفسى أقول : أريد الصعود فوق التل ، والتوحُّد مع الكون .. نظر (ماجد) إلىّ نظرة عميقة ، وكأنى عبرت عما فى داخله .

أما (أيمن) فقد سخَّف الفكرة ، وقال لى :

ـ فى هذا الظلام لن ترَىْ شيئًا ، وقد تتعرضين لوحش أو أحد الزواحف السامة .

فخفتُ وصمتُّ ..

وسرَتْ فى الجو نسمة طرية أنعشت القلوب الوجلة ، وذهبت للنوم فى السيارة ..

واستسلمت لمشاعر الخدَر المؤذنة بالنوم ..

ورأيت نجمة بعيدة من خلال زجاج السيارة فهمست بأسى :

ـ هل حقًّا ستطلين علينا يومًا ولن تجدينا ؟

★ ★ ★

الفصل الخامس

(الوحش الرهيب)

فى صباح اليوم التالى ..

أشعل (ماجد) النيران ، ووضع الإناء ليعد الشاى ، وبعد قليل جلسنا جميعًا نشرب الشاى .

سأل (أيمن) :

ـ ألا نفطر ؟

ـ الشاى سيمدنا بالطاقة ، وأفضل أن نأكل فى وقت الظهيرة .

صمت (أيمن) ممتعضًا .

ونظرت إليه ، وفوجئت بأن ملامحه التى فتنتنى من قبل تبدو الآن غير مريحة تحت قناع التجهم والشحوب ، ونقلت نظراتى إلى (ماجد) فوجدت وجهه مريحًا بالرغم من حدة ملامحه .

وسألت (ماجد) مبتسمة :

ـ هل صليت الصبح ؟

ـ إن الصلاة بالنسبة لى مثل الأكل والشرب .

ـ معنى ذلك أنك تصلى منذ صغرك .

ـ نعـم .

وتدخل (أيمن) سائلاً بسخرية :

ـ وهل طلبت من الله أن ينقذنا ؟

ـ نعم ، رجوته ذلك .

وبعد أن شربنا الشاى سألته :

ـ وما العمل الآن ؟

ـ استمعى للمذياع .

ـ فقط ؟

ـ سنذهب أنا و(أيمن) لجمع بعض الأخشاب ، وللبحث عن أى شىء يؤكل .

قال (أيمن) بلهجة يائسة :

ـ لا يوجد غير الأشواك والرمال .

(ماجد) : قد نجد بعض الحشائش .

ـ من أين لك هذا التفاؤل ؟

ـ يجب أن تقابل المشاكل بروح قوية .

ـ مشاكل ؟! نحن فى خطر مميت يا أستاذ ..

ـ لَمْ نَصِلْ للخطر بعد ، فمعنا الماء والشاى والسكر والأمل ، وبين غمضة عين وانتباهتها يغير الله الحال .

كلمات (ماجد) كلها سكنت فى أعماقى ، بل إن هذه الكلمات كانت كقطرات الندى على أزهار مشاعرى .

★ ★ ★

أحضر (ماجد) جركن الماء الكبير ، وصبَّ قليلاً منه فى جركن آخر صغير ، وقال :

ـ هذا نصيبنا اليوم من الماء .

صاح (أيمن) :

ـ هذا لا يكفى لغسيل الوجه .

ـ لا تغسل وجهك .. إنه للشرب وإعداد الشاى فقط .

فاعترضت أنا وقلت :

ـ أنا يجب أن أغسل وجهى .

قال (ماجد) :

ـ لو حافظنا على الماء ، نستطيع البقاء أكبر وقت .

ـ إلى متى ؟

سأل (أيمن) :

ـ هل هناك أمل ؟

ـ نعم ، فأنا طلبت من (عبد المنعم) أن يخبر رجال الحدود فى حال عدم عودتنا ، وأعتقد أنه قام بذلك .

فسألت : وكيف سيعرفون طريقنا ؟

ـ سيقتفون الأثر ، وسأشعل نارًا فوق الجبل .

وقال (أيمن) وهو فى وهدة اليأس :

ـ عن ماذا تتكلمان ؟ الأمل ؟! إن الموت قادم لا محالة ، ولا داعى لتأجيله .

نظر (ماجد) إليه ، وأدرك أن (أيمن) مهزوم من الداخل .

فقال له محاولاً تغيير مشاعره :

ـ ما رأيك لو تصعد للجبل وتشعل النيران ؟

ـ لا رغبة لى ولا قدرة .

فقلت لأستفزه :

ـ سأذهب أنا .

صاح (ماجد) بغير وعى :

ـ لا .

صوته مشحون بالشفقة واللوعة .

نظرت إليه ، وأنا غير مصدقة للمشاعر الكامنة خلف الكلمة .

سأله (أيمن) :لِمَ لا ؟!

سؤاله ليس ساخرًا فقط ، ولكنه يريد كشف مشاعر (ماجد) ، وكأنه يقول له : أنت ليستَ شخصًا فاضلاً كما تبدو .

وقال (ماجد) : سأذهب أنا ، الحقيقة أن تسلق الجبل يحتاج إلى خبرة وقدرة ..

قال (أيمن) وهو مستمر فى استفزازه :

ـ معنى هذا أن (شهيرة) لاتمتلك الخبرة أو القدرة ؟!

قلت وكأنى أتحدى (أيمن) بدون أن أدرى :

ـ لن يصعد أحد سواى ، أريد أن أشعر بأن لى فائدة .

وبدأت فى تسلق الجبل ومعى حقيبة تحتوى كمية من الأخشاب ..

وابتسامة ساخرة عالقة بشفتى (أيمن) ..

ولوعة حارقة تطل من عينى (ماجد) .

لم أكن أدرى أن تسلق الجبل شىء قاسٍ وصعب وخطر إلا بعد أن وصلت إلى قمة الجبل ، وأخرجت الأخشاب وأشعلت النيران .

وبالرغم من ذلك فقد فرحت ، وشعرت بقوة غريبة .. وقفت على القمة ، وأنا أشير بيدى ..

كنت أنفجر سعادة وتحقيقًا للذات .

وأخذت الحقيبة ، وبدأت فى النزول .

النزول سهل ، وشعرت بخفة عجيبة ، وكأن الجبل يساعدنى فى النزول .

جسدى خفيف ؛ فهرولت ، ولم أنتبه لحصوة صغيرة أخلت بتوازنى فسقطت ، وأنا أصرخ ..

فقدت الوعى .

لابد أنى مت ..

أنا (شهيرة) .. ميتة بعيدة عن بابا وماما ..

بعيدة عن القاهرة ..

لكنى سمعت صوتًا .. كيف أسمع وأنا ميتة ؟!

ربتات صغيرة لطيفة على خدى .. لابد أنه حبيبى (أيمن) .. فتحت عينى بالكاد لأشكره ..

لكن نظراتى تلاقت بنظرات (ماجد) ..

وكانتِ نظراته دافئة .. عطوفة .. وَجلَة .

ابتسم لى ، وقال : لا تخافى .. أنتِ بخير .. هيا انهضى .

حركت ذراعى أولاً ، وحاولت الوقوف ، فشعرت بـآلام حارقة فى كل جسدى ..

فقلت بضعف :

ـ لا أستطيع .

ـ بل تستطيعين .. حاولى مرة أخرى .

وحاولت فهاجمتنى الآلام ..

فقلت بصوت خافت ، كأنى أعتذر :

ـ لا أستطيع .

ـ استندى على ، وهيا ننزل معًا .

ـ لكن كيف وجدتنى ؟

ـ سمعت صرختك ، فصعدت ، ووجدتك .

ـ أين (أيمن) ؟

ـ إنه يتجول بعيدًا .

صمت قليلاً ، ثم قال :

ـ مؤكد أنه لم يسمع صرختك .

استندت عليه ، وبدأنا النزول معًا .

« وبرغم الآلام شعرت بأحاسيس مخدرة لذيذة » .

قلت له :

ـ أخاف أن يكون حدث لى نزيف داخلى .

ـ هل تشعرين بشىء من ذلك ؟

« صوته ممتلئ بعاطفة أسيانة » ..

ـ وكيف أعرف ؟

ـ ألم حارق فى مكان ما .

قلت بصوت غريب ، وكأنه دلال :

ـ كلى آلام يا باشمهندس .

ـ هذه رضوض سحجات سطحية ، سنتأكد منها عند وصولنا إلى الأرض .

ـ أى .. قدمى اليسرى لا أستطيع التحميل عليها .

ـ هيا اجلسى ، وسأراها .

جلست ، مددت قدمى اليسرى .

تحسس القدم ، ثم أمسكه بيديه ، وقال لى :

ـ هناك التواء فى الكاحل وسأعالجه فورًا ..

وأخذ يدلك قدمى بقوة ، ثـم جذب قدمـى بسرعة .. تـأوهت ، لكنى شعرت بأن قدمى أصبحت طبيعية ، ووقفت ..

ابتسمت رغم الآلام ، وقلت له :

ـ أشكرك يا باشمهندس .

ـ الشكر لله .. هيا ننزل .

استندت عليه وبدأنا النزول مرة أخرى ، ولكننا توقفنا أمام نظرات متفرسة مليئة بالاتهام والاستنكار ..

ـ ماذا تفعلان ؟!

قلت بضعف :

ـ (أيمن) .. هل رأيت ما حدث ؟

ـ إنى أرى جيدًا .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أنت صرختِ لتنفردى بـ (ماجد) .

ـ هل سمعت صراخى ؟!

ـ طبعًا .

نظرت إلى (ماجد) ، فنظر بعيدًا ..

كان يكذب ليخفى تخاذل (أيمن) عن نجدتى ..

وقال (أيمن) بانفعال :

ـ هيا استندى علىّ .

وأخذ مكان (ماجد) الذى نزل منفردًا وبسرعة كأنه يهرب من شىء ..

عندما وصلنا إلى سفح الجبل ، وجدنا (ماجد) قد أعد الشاى وأخرج الرغيفين الباقيين ، وقدم لكل منا رغيفًا وقطعة جبن ..

سألته بحنان عفوى :

ـ وأنت .. أين نصيبك ؟

ـ سأكتفى بقطعة جبن وكوب شاى .

قلت بإصرار :

ـ سنقتسم كل شىء معًا .

الحنان ... يطل من عينيه ، ويسرى فى صوته ، وهو يقول :

ـ أنتِ ضعيفة وتحتاجين إلى الطعام .

نظرت إلى (أيمن) فوجدته يكاد ينتهى من تناول طعامه .

قلت :

ـ أنا لا أستطيع تناول الأكل إلا بعد غسل يدى .

أمسك (ماجد) جركن الماء الصغير ، وقال :

ـ هيا اغسلى وجهك وذراعيك ويديك وساقيك ، وافحصـى كل شىء لنتأكد من سلامتك .

قام (أيمن) واختطف الجركن منه ، وقال :

ـ دع هذه المهمة لى .

أعطاه (ماجد) الجركن باستسلام ، بل وهمس :

ـ آسف .

صبّ (أيمن) الماء ، فشعرت بآلام صغيرة ، وأخذت المـاء من (أيمن) ، وابتعدت عنهما وفحصت نفسى ؛ فرأيت بعض الكدمات ، والسحجات الصغيرة .

عدت ، وأكلت ، وشربت الشاى .

فرش (ماجد) بطانية ، وقال لى :

ـ هيا نامى هنا .

رأيت (أيمن) ينظر نظرات نارية إلى (ماجد) ، ونادى عليـه بقوة وأخذه وسار بعيدًا ، وقال له :

ـ (ماجد) .. أرجوك ابتعد عن خطيبتى ، ولا تقدم لها شيئًا .

وشعر (ماجد) بخجل شديد ، وكأنـه ضبط وهو يرتكب ذنبًا ، وتأسف لـ (أيمن) بخجل وعاد صامتًا ، وجاء (أيمن) وجلس بجانبى .

أما (ماجد) فقد جلس بعيدًا ..

بحس مرهف ، ولماحية شديدة « أتميز بهما طبعًا » أدركت ما حدث ..

فقلت : سأذهب إلى السيارة لأنام هناك ..

وتحركت نحو السيارة .

ونادى (ماجد) على (أيمن) ، وقال له :

ـ هيا نلتقط بعض الأخشاب .

ومر الوقت بطيئًا ثقيلاً مملاً .

إلى أن بدأت الشمس فى سحب خيوطها استعدادًا للرحيل ، فقررت أن أعود إليهما ، خاصة وقد شعرت بالجوع والوهن .

وفجأة « هكذا تحدث كل الأشياء فى القصص » ..

رأيت عينين تحدقان فىّ بقوة ..

عينان واسعتان جاحظتان مخيفتان ..

فتوقفت متجمدة مرعوبة ..

وقد أيقنت بالهلاك ..

★ ★ ★

الفصل السادس

(الفـــداء)

ـ هذا كبش جبلى .

صاح (ماجد) ، وهو يرى الحيوان السمين ذا العينين الجاحظتين والقرنين الملفوفين المدببين ..

ثم أكمل :

ـ ابتعدى عن طريقه يا (شهيرة) ، واقذفيه بالحصى حتى لا يتسلق الجبل .

وقال لـ (أيمن) :

ـ اجر أمامه بأقصى سرعة ، وحاذر قرنيه ، ولا تجعله يصعد الجبل بأى شكل ، هيا .

« كان مثل قائد يوزع المهام على جنوده » ..

وجرى (أيمن) بأقصى سرعة ..

وجرى (ماجد) ..

وجرى الكبش الثقيل ..

حاول الكبش أن يتجه إلى الجبل ، لكنى كنت أقذفه بـالحصى ليبتعد ، وكذلك (أيمن) ..

و(ماجد) يحاوره من الخلف ، وقد أخرج مطواة .. من جيبه .

كانت مناورة قاتلة ، مسألة حياة أو موت بالنسبة للجميع .

الكبش يحاول أن يفلت ، ولكنه أصبح محاصرًا ..

و(أيمن) يجرى أمامه ليربك حركته ..

وأنا أقذفه بالحصى ..

و(ماجد) خلفـه يقترب منـه .. ويقترب ، ثم قذف (مـاجد) بنفسه ، وأمسك بقدمى الكبش الخلفيتين ، وجذبه بقوة فأسقطه أرضًا ، والكبش يثغو ، ويحاول أن ينال (ماجد) بقرنيه ..

وركب (ماجد) فوق بطن الكبش ، وهو يلهث ..

ونادى (أيمن) الذى أصبح قريبًا منه ، وقال له :

ـ امسك قرنَى الكبش .

واقترب (أيمن) خائفًا ، لكن (ماجد) قال له :

ـ تعـال من الخلف ، وامسك القرون بقـوة ، ولا تدعـه يرك .. هيا بسرعة .

وأخيرًا تمكن (أيمن) من مسك قرنَى الكبـش ، وهو يركب فوق صدره .

ونادى (ماجد) علىّ ، وقال لى :

ـ امسكى ساقيه الخلفيتين .

وقفت مترددة .. « أنا (شهيرة) .. أشـارك فـى ذبح حيوان يا « بابى » .

صاح (ماجد) آمرًا : اجلسى عليه ، وامسكى ساقيه ، فجلست على الكبش ، وأنا أشهق قائلة « تَيْبْ » وأمسكت الساقين بقوة .

أمسك (ماجد) المطواة ، وتمتم : باسم الله .. الله أكبر .

بسرعة أعمل المطواة فى رقبة الكبش حتى اندفعت الدماء منـه ، وهو يثغو ..

منظر غريب ورهيب .. نافورة من اللون الأحمر مندفعة بقوة ، فهربت خائفة مذعورة ، وكذلك (أيمن) .

وحاول الكبش أن يقوم ، وهو يثغو بصوت عالٍ ..

وفعلاً استطاع النهوض والجرى ، والدماء تندفع منه ، وصوتـه صوت جنائزى .

وجرى (ماجد) نحوه ، وأمسك ساقيه الخلفيتين وجذبهما بقوة حتى أسقطه ، وضغط عليه ، والكبش يحرك جسده بكل قوة .. ثم بدأت حركاته فى الضعف ، وصوته فى الخفوت .. إلى أن انتهت حركته تمامًا .

وأسرع (ماجد) فأحضر سكينًا حادة من السيارة ، وبدأ فى عملية السلخ ، ونظر إلىّ ، وقال :

ـ (شهيرة) أحضرى الماء للتنظيف ..

ثم بدأ فى التقطيع ..

وقــال :

ـ الحمد لله الذى كان رحيمًا بنا ففدانا بكبش .

سألته :

ـ لماذا كان يجب أن يموت هذا الكبش لنحيا نحن ؟

ـ هذه حكمة الله ورحمته ، والإنســان هو خليفة اللـه فى الأرض ، وقد ذلل الله لـه كل الكائنات من نبات وحيوان حتى الجماد ، الباقى أن يسمو الإنسان بحياته ويحقق إرادة الله فيه .

ـ وما هى إرادة الله فى الإنسان ؟

ـ تحقيق العدل والخير والحق على الأرض .

لاحظ (أيمن) انجذابى لحديث (ماجد) ، فاعترض قائلاً :

ـ دعانا من هذا ... نريد أن نأكل .

قطع (ماجد) قطعًا كثيرة من اللحم ، ووضعها فى إناء ، وغسلها من الدماء ، ورشّ عليها بعض الملح .

ثم حفرنا حفرة كبيرة ، وملأناها بالخشب ، وأشعل (ماجد) الخشب ، وانتظر إلى أن تحول الخشب إلى جمرات ، ثم وضع قطع اللحم طبقات فوق طبقات ، ووضع بعض الجمرات أعلى قطع اللحم ، ثم وضع الرمال فوق الجمرات .

وبعد ساعة ، بدأ (ماجد) فى كشف الحفرة مستخدمًا قطعة من الخشب ، وبدأ فى إخراج اللحم ، وكان الجمر مغطًى بكثير من الرماد ، ولكنه مشتعل .

ووضع قطع اللحوم فى طبق ، وبدأ الجميع فى الأكل ، وتذوقته .. فوجئت بأنه شهى جدًا حتى إنى هتفت ..

ـ هذا ألذ طعام أكلته فى حياتى ..

مضغ (أيمن) ببطء ، وهو يقول :

ـ فعلاً ، إنه لحم شهى ولذيذ .

(ماجد) : بالهناء ..

وتسابقنا فى التناول والمضغ ، ونحن نضحك سعداء وقد حدثت لنا حالة انتشاء .

★ ★ ★

أحضر (ماجد) غصنين كبيرين أعطى أحدهما لـ (أيمن) ، وقال له :

ـ هيا نلعب لعبة التحطيب .

ـ لا أعرفها .

ـ سأعلمها لك .

ـ هذه لعبة متخلفة .

تدخلت ، وقلت لـ (أيمن) :

ـ العب من أجل خاطرى .

لقَّن (ماجد) (أيمن) طريقةَ اللعب ..

وبدأ (أيمن) يضرب بعصاه ، و(ماجد) يصده .

لاحظت نظرات حقد فى عينى (أيمن) ، وأدركت أنه سينتهز أى فرصة لإصابة (ماجد) أو حتى التخلص منه .

وكان (ماجد) يحاوره بالعصا ، وهو يشرح له ..

ملامح (ماجد) منبسطة ، ولا شىء يعتمل فى أعماقه .

وانقض (أيمن) بعصاه على (ماجد) ، الذى اتقى الضربات بمهارة وهو يعترض على طُرُق (أيمن) .

صحت فيهما : يكفى هذا .

فتوقف (أيمن) ووجهه ملىء بالانفعالات الفوارة ..

قال (ماجد) : هيا نقطع باقى الكبش ، ونرش الملح عليه ؛ لكى نجفف لحمه لنحتفظ به أكبر وقت ممكن ..

وقام مع (أيمن) بالمهمة ، فى الوقت الذى وضعت أنا الرمال فوق الدماء ..

واستطاعا إتمام العمل قبل أن يهبط الليل بستائره السوداء ..

فأشعلنا النيران وتسامرنا ونحن نشرب الشاى ..

وقلت : لم نشغل نارًا فوق الجبل ..

(ماجد) : لقد هبط المساء ..

(أيمن) : ها هو يوم آخر نعيشه ..

(ماجد) : يستحق الأمر شكر الله وحمده ..

(أيمن) : أنت صليت كل الأوقات ..

(ماجد) : نعم ، وسأصلى ركعتى شكر ، فمن المفضل أن يكون الإنسان حامدًا شكورًا ..

وابتعد عنا ..

وفى ضوء النجوم وقف يصلى ، وذهبت لرؤيته ..

فرأيته يبتهل إلى الله ..

وسمعته وهو يقول بصوت مسترحم ..

ـ يا الله .. مد لنا يد العون من أجل (شهيرة) .

كدت أبكى من العاطفة التى هزتنى من الداخل ، وابتعدت ، وأنا أهتز ..

وشعرت بأن قلبى أصبح ميدانًا ..

لصراع غريب ..

★ ★ ★

الفصل السابع

(الدليـــــل)

ـ ألا نتحرك ونترك هذا المكان ؟

تساءل (أيمن) فى الصباح ، ونحن نعد الحفرة ، ونشعل النار فى الخشب ؛ لنفطر ببعض اللحم المشوى .

قال (ماجد) :

ـ لا أحبذ البعد عن السيارة ، واستهلاك قوتنا بدون هدف ، والأفضل أن ننتظر .

سألت :

ـ إلى متى ؟

ـ لن تشاءوا إلى أن يشاء الله .

وبعد الإفطار ..

قال (ماجد) : سأذهب لأشعل النار فوق قمة الجبل .

(أيمن) بلهجة يائسة : آه !

ـ يجب أن نقوم بكل ما يمكن ، والله يساعد من يساعد نفسه .

بدون وعى قلت :

ـ سآتى معك .

صاح (أيمن) غاضبًا :

ـ لا .. يكفى ما حدث فى المرة السابقة .

ـ هذه المرة سأكون مع (ماجد) ، كما أنى أشعر بالملل لأنى لا أفعل شيئًا .

ـ استمعى إلى الموسيقى .

التفت (ماجد) إلىَّ ، وقال بصوت عميق ينضح بالأسى :

ـ من المفضل أن تسمعى كلام خطيبك .

وتسلق (ماجد) الجبل ، ومعه الحقيبة مملوءة بالأخشاب .

★ ★ ★

نظر (أيمن) إلىَّ ، وقال بلهجة تحذيرية ، وبصوت خافت :

ـ إن (ماجد) متمسك بالدين .

ـ وهل هذا عيب ؟!

ـ إنه لا يحب المرأة المتبرجة ، ويدين المرأة العاملة ، وفى قرارة نفسه يحتقر وجودك معنا .

بل وقد أخبرنى أن اللعنة قد حلّت بنا بسبب وجودك معنا .

هتفت منفعلة :

ـ يا له من متخلف !

ـ إنـه من العصر الحجرى ، انظرى إلى وجهـه العـابس ، وتذكرى كيف قام بذبح الكبش بقسوة .

حاذرى من التواجد بالقرب منه ، ومن الأفضل عدم التحدث إليه ، ويستحسن ألا تتواجدى معه مطلقًا ..

ـ هل ترى هذا ؟

ـ نعـم .

ـ سأواجهه .

ـ لا .. لا .. نحن فى حاجة إلى مساعداته ، فلا داعى لإثـارة غضبه ، كما أننا فى الصحراء ، قد يقتلنا ويدعى أننا سقطنا من فوق الجبل مثلاً .

كان (أيمـن) يتحدث ببطء .. وبصوت رتيب ، وينظر إلىَّ نظرات عميقة كأنه يسلب إرادتى وينوّمنى تنويما مغناطيسيًا .

وصمتنا عندما رأينـا (مـاجد) نـازلاً ، وهـو ممسك الحقيبـة ، وقـال : من الأفضل أن نجمـع كثيرًا مـن الأخشـاب ، أو نقطـع الأغصان الجافة من شجر الشوك .

ذهب (أيمن) معه ..

وفضلت أنـا الجلوس فـى السيارة ، أستعيد كـلام (أيمـن) ، وصدقته ، ونسيت أن (ماجد) كان يصلى ويدعو الله أن ينجينى .

وبعد قليل عاد الاثنان بكمية من الأخشاب .

أعد (ماجد) الشاى ، وقال لـ (أيمن) :

ـ نادِ خطيبتك لتناول الشاى .

سمعته فى الوقت الذى كنت هائمة مع كلمات الأغانى المجنحة ؛ فى محاولة لنسيان الواقع .

صحت : هات الشاى يا (أيمن) .

ـ حاضر يا روح قلبى .

وبعد تناول الشاى ، قال (ماجد) :

ـ سأصعد إلى تلك التلال البعيدة .. لعل وعسى ..

نظرت نحوه وهو يتحرك فى اتجاه التلال ..

ما زال حديث (أيمن) يلوّن مشاعرى بالضيق ..

ـ كيف يكون شابًا مثقفًا ، ويعمل مع منظمـة عالمية ، ورأيه متخلف فى الأنثى ؟!

يجب أن أحدثه وأقنعه بأن المرأة نصف المجتمع ، ولهـا كل حقوق الرجل ، وأنهـا إنسـانة لـن تنمو شخصيتها إلا فـى جـو متفتح مشبع بالثقة والتمسك بالفضائل .

يجب أن أحدثه فى هذا ، ولكن بدون أن أثير غيظه .

ومضى الوقت بطيئًا .. ثقيلاً .. مملاً .

وجاء (أيمن) وجلس بجانبى فى السيارة .

وحاول أن يتودد إلىّ ، وسكب كلماته الناعمة فى أذنى .

لكن كلماته كانت تنزلق بدون أن تمس شعورى .

ومد يده ليمسك يدى ، فشعرت بنفور غريب منه .

وقلت له بحدة :

ـ صديقك هذا متزمت ، وعلينا أن نحترم أنفسنا حتى لايفاجئنـا بتصرف قاتل .

ـ قاتل ؟!

ـ ألم تقل أنت ذلك ؟

وبعد قليل عاد (ماجد) ، ووجهه خالٍ من أى مشاعر .

نظر إلى الساعة ، وقال : سأذهب لصلاة الظهر .

وبعد أن صلى نادانا ، وقال مبتسمًا :

ـ هيا نعد الحفرة للغداء .

وبدأ فى إشعال النار ، وقال لـ (أيمن) :

ـ دع (شهيرة) تحضر اللحمة .

ـ سأحضرها أنا .

ـ أشركها معنا حتى لا تشعر بالملل .

ـ أنت لم تفهم حتى الآن .

ـ لم أفهم ماذا ؟

ـ (شهيرة) تعتبرك مسئولاً عما نحن فيه ، ولذلك لا تود التعامل معك .

صمت .. ومشاعره تتقافز غاضبة ، ثم قال بكبرياء : هى حرة .

وعندما تم نضج اللحم ..

قسم (ماجد) الكمية ، وأعطى (أيمن) نصيبى ، وقال له :

ـ خذ أعطها نصيبها ، واذهب لتأكل معها ، ولا تدعها وحيدة .

جاء (أيمن) إلىّ حاملاً كمية من اللحوم ، وافترشنا الأرض ، وفى أثناء الأكل لمحته فصرخت :

ـ ذئب ... ذئب !

جاء (ماجد) جريًا وهو يرفع قطعة خشب كبيرة وغليظة ، وهو يصيح : أين ؟... أين ؟

نظر نحو الحيوان القابع بالقرب منا وهو يلهث ، وقال :

ـ إنه كلب ، وقد يكون جائعًا .

وقذف له بقطعة لحم ، التقطها الكلب ، وهو يحرك ذيله سرورًا .

قذف (ماجد) بقطعة لحم أخرى ، والتقطها الكلب وهو يحرك ذيله ..

سأل (ماجد) :

ـ لكن من أين جاء ؟

ـ بل أنتم من أين جئتم ؟

فوجئنا برجل أسود اللون يركب حمارًا هزيلاً ويقترب منا :

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

قال الرجل كأنه يفسر شيئًا :

ـ رأيت الدخان فوق الجبل فأدركت أن هناك من يستغيث .

« فى هذا الوقت عرفت قيمة (ماجد) » .

وأستأنف الرجل كلامه :

ـ من أنتم ؟ وكيف جئتم إلى هنا ؟

واجهه (ماجد) ، وسأله بوضوح :

ـ من أنت ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟

ـ ما هذا ؟ لحم مشوى .. دعونا نأكل ونتحدث .

أحضر (ماجد) كمية من اللحم ، وأشعل النار ، وانتظر حتى أصبح الخشب جمرًا ، ووضع اللحم .

وتحدث الرجل عن نفسه ، وقال : إن اسمه (أبوعمور) ويعمل تاجرًا فى الصحراء ، يعرف أماكن الرعاة ، ويحمل إليهم السكر والشاى والدقيق وعلب الصلصة والبصل وحجارة البطارية والملح ، وأشياء خاصة بالنساء .

يحضر كل هذا من قرية العلاقى ، ويخترق الصحراء « التى يعرف دروبها جيدًا » مع حماره وكلبه يبيع للرعاة .

وعرف منا قصة وجودنا فى الصحراء .

وعلق قائلاً: على مسيرة خمس أو ست ساعات ، سنجد بعض الرعاة ، سيأتى أحدكم معى ، لنصل إليهم ، وسأعود بحمارين لأخذ الباقى .

استأذن (ماجد) من (أبو عمور) ، واجتمع معنا وسألنا الرأى .

قلت : أفضل أن نمكث معا ، أو نذهب معًا ..

وقال (أيمن) مندفعًا :

سأذهب أنا مع الرجل ؛ لأضمن حضور أحد لإنقاذنا .

التزم (ماجد) الصمت ..

قلت أنا بسرعة :

ـ أفضل أن نذهب جميعًا .

قال (أيمن) :

ـ هل تستطيعين السير ست ساعات ؟

ـ ولماذا أسير ؟! فلنتبادل ركوب الحمار .

لمحت ابتسامة خفيفة على شفتى (ماجد) .

قال (ماجد) : سنعرض الأمر على (أبو عمور) ..

وقال (ماجد) للرجل على اتفاقنا .

فقال (أبو عمور) :

ـ لا بأس إذا كنتم تقدّرون المشاق التى ستتعرضون لها من المشى .

قال (ماجد) : سنحضر البطاطين واللحم والمياه .

ـ هذا أفضل .

وبعد أن تناول (أبو عمور) الطعام ..

قررنا بداية السير ..

وركبت الحمار لأول مرة فى حياتى ..

وبدأ المشوار ..

★ ★ ★

الفصل الثامن

(السير الخطر)

بدأت المغامرة تأخذ لونًا مختلفًا فى عينى ..

ومهما كان الضيق والألم اللذان بدأت أشعر بهما فى سلسلة ظهرى ، وثِقَل الساقين ، وآلام المفاصل ..

فالأمل جعل كل شىء محتملاً ..

و(أبو عمور) هذا يمشى بسرعة كبيرة .

قدمه لا تكاد تلامس الأرض .

إنه نحيل أسود مثل خيط من الدخان الطيب .

و(ماجد) يسير صامتًا .. لا شىء يظهر على وجهه .

أما (أيمن) فعلامات الامتعاض تظهر على وجهه ، وبين الحين والآخر يطلق كلمة يعبّر بها عن ضيقه .

والكلب يجرى أمام الموكب ، وكأنه يكتشف الطريق ، ويسير فى ممرات بين الجبال قبل وصولنا ، إنه يعرف الطريق وكأنه دليل .

★ ★ ★

صرخ (أيمن) : يكفى هذا ..

سأله (أبو عمور) :

ـ ماذا ؟

ـ يجب أن نتوقف للراحة .

ـ ليس الآن ، علينا أن نسرع لنصل فى وقت مناسب ؛ فالجميع ينامون بعد صلاة العشاء مباشرة .

نظر (أيمن) إلى الساعة وقال :

ـ الساعة الآن الثانية .. أمامنا وقت مناسب .

ـ لا .. تحمل وسِرْ .

ـ لا أستطيع .

قلت لأنهى هذه المناقشة العقيمة :

ـ تعال ، اركب بدلاً منى .

جاء بسرعة ، وأوقف الحمار ، وأنزلنى .

أخذت أحرك جسدى لأستعيد لياقتى .

« عندما أنزلنى (أيمن) من فوق الحمار لم أهتز عاطفيًا » .

ولاحظت أن « أبو عمور) هذا الكهل الذى أثقلتـه تجارب الحياة كان ينقل نظراته بينى وبين (أيمن) و(ماجد) .

واستمر الركب فى السير ، واختراق الدروب بين الجبال .

وبعد نصف ساعة لاحظ (ماجد) أنـى بـدأت أتـألم ألمـًا صامتـًا فهمس فى أذن (أبو عمور) ..

فهز الكهل رأسه ، وهو ينظر إلى (ماجد) نظرات عميقة .

وأشار (أبو عمور) إلى شجرة شوك تفرش بعض الظلال وقال :

ـ سنتوقف قليلاً لنشرب الشاى ، ثم نكمل السير .

وتنهدتُ ارتياحًا .

وأعد (أبو عمور) الشاى فى إناء معه « مغطى بالهباب » .

وصب الشاى فى أكواب صغيرة جدًا .

ناولنى كوبًا ، ارتشفت رشفة واحدة فقط ، فشعرت بغثيان ، وأعدت الكوب إلى (أبو عمور) ..

قال محتجًا بلهجة لطيفة :

ـ اشربى ؛ إنه شاى مع الزعتر لتنقية الدم .

ـ لا .. لا .. شكرًا .

ابتسم الكهل ، وقال لى :

ـ سأعد لكِ شايًا بدون زعتر .

ـ لا تعد شيئًا « الله يخليك » .

قدم الكهل كوبًا لـ (أيمن) الذى رفض بإباء .

أما (ماجد) فلم يرفض .

(ماجد) شرب كوبًا صغيرًا واحدًا ..

أما الكهل ، فقد شرب ثلاثة أكواب ..

ثم غسل الأكواب وإناء الشاى ، ووضع الجميع فى كيس من القماش .

وكان الحمار مقيد الساقين يتحرك ببطء بجوارنا ، يلتقط بعض الحشائش الضعيفة .

فك (أبو عمور) قيد الحمار ، ونظر إلى (ماجد) وكأنه يدعوه للركوب .

وقبل أن يتكلم جرى (أيمن) ، وركب الحمار ..

ـ انزل .

صاح (ماجد) فيه بقوة ، وأكمل قائلاً :

ـ أنت ركبت .

ـ نعم ، لكن قليلاً .

ـ أنت ركبت نصف ساعة ، و(شهيرة) ستركب ساعة .

ـ لا أفهم .

ـ سنقسم المشوار ، كل نصف ساعة يركب أحدنا .

قلت بسرعة لـ (ماجد) :

ـ إذن هذا دورك .

ـ أنا متنازل عنه لكِ .

قلت بعناد وكبرياء وأنا شامخة أنفى « لا أدرى كيف » ..

ـ وأنا لا أقبل .

ـ يجب أن تقبلى ، فأنا أستطيع التحمل .

ـ وأنا أيضًا أستطيع .

قال بأسلوب مهذب :

ـ لا تجادلى ، من فضلك اركبى ، وعند شعورى بالتعب سأركب .

سأله (أبو عمور) هامسًا :

ـ هل هذه قريبتك ؟

ـ إنها أختى .

ـ الآن فهمت ، لكن هذا الآخر .. من يكون ؟

ـ خطيبها ، ونحن جميعًا زملاء فى العمل .

ـ خطيبـها ؟!

ـ نعـم .

ـ ولكنه لا يحبها .

ـ اصمت يا رجل ، لا تسبب فتنة .

ـ أمرك غريب .

ـ دعك من هذا .

وسار الموكب فى مدقات لا يعرف بوجودها إلا أهل الصحـراء ، وهى تختصر المسافات كثيرًا .

بعد نصف ساعة ..

صاح (أيمن) :

ـ لقد مرت نصف ساعة وحان دورى .

قال (ماجد) :

ـ لا .. دورك بعد نصف ساعة من الآن .

ـ ولكنى لا أستطيع .

فوجئت بـ (أبو عمور) يقول بلهجة جافة :

ـ نحن سنسير ، ولن ننظر إلى من يتخلف .

علَق (أيمن) :

ـ أنت مثل أبو قصادة تستطيع أن تسير اليوم كله .

ـ ماذا تقول ؟

ـ نرتاح قليلاً .

ـ ومتى سنصل إذن ؟.. هيا استمر .

وسار الموكب ، و(أيمن) يجاهد ويشكو ..

أما (أبو عمور) فهو يحكى بصوت سريع وكلمات متداخلة .

و(ماجد) يسير صامتًا غير مهتـم ، وكأنـه يستطيع أن يسير الدهر كله ..

وبعد نصف ساعة ..

صاح (أيمن) :

ـ ليتنا نرتاح قليلاً :

قال (أبو عمور) بلهجة حاسمة :

ـ لن نرتاح .

أوقف (ماجد) الحمار ، واستندت عليه ونزلت .

« هذا الشاب يحرك مشاعرى بقوة غريبة » ..

وأسرع (أيمن) وركب الحمار .

وسار الموكب ..

« كأنى كولمبوس سيكتشف أمريكا الصحراوية » ..

واستمر الأمر هكذا ؛ أنا أركب ساعة ، و(أيمن) يركب نصف ساعة ، و(ماجد) و(أبو عمور) يسيران .

★ ★ ★

وأسدل الليل أستاره السوداء ..

وأصاب الإرهاق الجميع .

بل وآلام حارقة غزت كل الأجساد .

والنجوم تتلألأ فى صفحة السماء .

واخترقنا ممرًا ضيقًا بين جبلين .

وعلى ضوء النجوم رأينا واديًا متسعًا ..

ثم سمعنا نباح الكلاب ..

نباح شديد ..

نباح غاضب ..

وجرت الكلاب نحونا ، وهى تكشر غاضبة ..

وشعرت بخوف شديد ، فالتصقت بـ (ماجد) الذى كان يسير بجوارى ..

وشعرت بأحاسيس غريبة ..

أحاسيس كلها لهفة ورغبة عارمة ..

فى أن يضمنى (ماجد) ليحمينى من الخطر .

فى هذه اللحظة لمحت بريقًا حادًا فى نظرات (أيمن) ، وكأنه وصل إلى قرار خطير ..

★ ★ ★

الفصل التاسع

(لقـــــاء)

تقدم (أبو عمور) الموكب لمقابلة الكلاب الغاضبة التى هدأت زمجرتها عندما شمت رائحته ، لأنهـا معتادة عليه ، بل وبدأت مداعبة الكلاب لكلب (أبو عمور) ..

ثم جرت الكلاب جميعها فى الوادى ..

وتقدم الركب ..

(أبو عمور) يسبقنا بحماره ..

وأنـا أسـير مثـل « أى أمـيرة » بيـن حارسـين ؛ (مـاجد) و (أيمن) .

وسَرَتْ نسمة طرية أنعشت النفوس الكليلة .

كما أن اتساع الوادى ، ونباح الكلاب ، فرشا طريقنا بالأمل .

وصلنا قريبًا من خيمتين .

رأيت ثلاثة أشباح فى استقبالنا .

ورآهم (أبو عمور) « طبعًا » فتقدم إليهم .

ووقف أمام كبيرهم ، ووضع يده اليمنى على كتف الشيخ اليسرى وبادله الثانى نفس الوضع .

ثم ابتعد كل منهما خطوة ، ووقفا أمام بعض يتكلمان فى نفس الوقت .

ـ كيف الحال ؟

ـ رايض ؟ « هل أنت راضٍ ، وحالك سعيد ؟ »

ـ رايض .

ـ والعويلة بخير ؟.. « العائلة بخير » .

ـ العويلة بخير .

ـ والصغار ؟

ـ والصغار .

ـ إيه عامل ؟ « كيف حالك ؟ »

ـ إيه عامل .

وتكررت هذه التحايا بين (أبو عمور) وباقى الأشخاص بنفس التفاصيل .

كدت أضحك ، فتكرار المشهد بتفاصيله المملة يثير الضحك . وكتبت هذا المشهد فى بحثى .. تحت عنوان « طقوس التحيـة عند الرعاة فى صحراء العلاقى » .

المهم أنه بدأ حديث سريع متداخل بلهجة غريبة بين (أبو عمور) وكبيرهم « الأمر كان يستدعى وجود مسجل لتسجيل كلام غير مفهوم » .

وبعد أن انتهى الحديث ، تقدم الثلاثـة ، وتبينت ملامحهم بالرغم من لونهم الأسود مثل قطع من الظلام .

الأول فى بداية العَقد الخامس واسمه (حسين) وهو الأب والثانى فى بداية العقد الثالث واسمه (محمد) وهو الابن الأكبر ، والثالث فى الخامسة عشرة واسمه (تاج) وهو أخو (محمد) .

وحيونا :

ـ يا هلا يا مهندسين يا هلا ... يا هلا .

وصافحوا (ماجد) و(أيمن) .

أما أنا فكانوا يقفون أمامى مبهورين مشدوهين ..

« طبعًا فأنا (شهيرة) »

ثم دعونا للجلوس أمام خيمة الرجال .

وتحدث عم (حسين) إلى (أبو عمور) ، وفهمت من كلامهم غير المفهوم بأن (حسين) يطالب بذهابى إلى الحريم .

ونقل (أبو عمور) الطلب إلى (ماجد) و(أيمن) متجاهلاً وجودى .

وقبل أن يتكلم (ماجد) و(أيمن) قلت لهما :

ـ لا أحب أن أبتعد عن مجموعتى .

وأخيرًا رضخوا « لإرادتى الحديدية » وجلسنا جميعًا أمام خيمة الرجال .

وذهب الشابان (محمد) و(تاج) ، وعادا بعد قليل ، وكل منهما يحمل إناءين بهما « لبن رايب » ، وقدما اللبن لنا « مجموعتى و(أبو عمور) » ..

وكنت أنا أرفض بإصرار ..

و(أبو عمور) يلح علىَّ أن أشرب قائلاً :

ـ إنه لبن يبرِّد الجوف .. هيا يا بنيتى .

وتذوقت اللبن وأنا خائفة ، ولكنى وجدت طعمه لذيذًا ..

وقال الرجل الكبير (حسين) :

ـ هل نعد العشاء أو « جبنة » .. « الجبنة = القهوة » .

أجاب (أبو عمور) منتفخًا :

ـ معنا لحم كبش .. خذوه جهزوا لنا عشاء طيبًا ، وبعد ذلك نتناول الجبنة .

وبدءوا فى إعداد اللحم بنفس الطريقة التى أعد (ماجد) بها اللحم المردوم « وهذا جعلنى أشك فى أصول (ماجد) » .

وكان (أبو عمور) يتكلم مع (حسين) وولديه بكلام سريع متداخل مع مصمصة الشفاه ، وهز الرءوس ..

وكأننا غير موجودين معهم ..

لكنى أدركت أن (أبو عمور) يحكى لهم حكاية وجودنا فى الصحراء ، والرعاة غير مقتنعين ..

المهم نضجت اللحوم ، وتناولت قطعة واحدة بين يدى بدون طبق أو سكين أو شوكة .

وبعد أن انتهيت من قطعة اللحم بعد مجهود مضنٍ ، رفضت أى شىء آخر .

وانتهى الجميع من الطعام .

وبدأت طقوس الجبنة « القهوة » ..

فأخرج (محمد) من كيس يحمله « كل واحد منهم يحمل كيسًا قذرًا يضع فيه حاجياته » قارورة من الفخار ، وأخرج من القارورة حبات البن ، وأيضًا بعض الحبّهان .

ووضع البن والحبهان فى طاسة صغيرة رفعها للنار ، وهو يهز الطاسة ، ثم وضع البن والحبان فى هون خشبى صغير وأخذ يدق ويصحن ..

فى نفس الوقت كان هناك إناء مملوء بالماء موضوع على النار ، إلى أن وصل الماء إلى درجة الغليان ، فأضاف (محمد) البن المسحوق مع الحبهان فى الإناء .

ووضع السكر بيده « هنا كل قواعد إتيكيت المائدة مُلغاة » .

وصب القهوة فى الأكواب ، وأذاب السكر الكثير بعود خشب وقدم كوبًا لى فرفضت « طبعًا » وكذلك رفض (أيمن) « لأنه من نفس السلالة » .

لكن (ماجد) شرب ، بل ووجد طعمها لذيذًا ..

« صرح لى بذلك ، وهذا ما جعلنى أزداد شكًا فى أصوله » .

ورأى (ماجد) أن يصنع جسرًا من الود بينه وبين القوم .

فقال لهم :

ـ فى ليلة مثل هذه الليلة ، وفى منطقة جبلية مثل هذه المنطقة ، كان النبى محمد ﷺ جالسًا فى الغار ، عندما جاء إليه الروح القدس جبريل وأقرأه السلام ، وقدَّم له صحيفة .. وقال له : اقرأ يا (محمد) ..

ـ ما أنا بقارئ .

سيطر الصمت على الرعاة « وأنا معهم » وتحولوا إلى آذان مُصغية ، وأعين متسعة ، ونفوس ظامئة للمعرفة .

واستمر (ماجد) يحكى جزءًا من السيرة النبوية ، وقصة نزول الوحى على سيدنا محمد ﷺ ..

والمجموعة مشدوهة ... منبهرة ... سعيدة .

كلهم طاروا مع الخيال إلى الجزيرة العربية لمعاينة الأحداث المقدسة .

ووصل بهم (ماجد) إلى أن وقف الرسول ﷺ فوق تل ونادى القوم ، وقال لهم :

ـ ما رأيكم بى ؟

ـ كريم ابن أكرمين .

ـ ماذا لو أخبرتكم أن وراء هذه الأكمة ما وراءها ؟

ـ ما جربنا عليك كذبًا قط .

ـ إذن فأنا رسول الله ، إليكم جئت لكم بالبشارة وبخير الدنيا والآخرة ولن يكلفكم هذا سوى أن تعبدوا الله ولا تشركوا معه أحدًا .

ثار القوم ونعتوه بالكذب .

توقف (ماجد) ، وقال لهم :

ـ غدًا سأكمل لكم باقى السيرة .

ضرب الرجال كفًا بكف ، وهم يقولون عبارات استحسان ، ويلمسون كتف (ماجد) بتقدير غريب وكأنه ولى مبروك أو شيخ مكرم .

قال (ماجد) لهم :

ـ نحن متعبون ونريد النوم .

واتفق الجميع على أن ننام نحن الثلاثة فى مكان قريب منهم .

التف كل منا فى بطانية ، ورقد على الرمال .

وكانت تجربة أخرى لى .. النوم فى العربة أولاً .. ثم النوم على الرمال « آه يا (شهيرة) عليك أن تقاسى وتقاومى » .

طالعتنى النجوم لامعة فى السماء ، واستطعت تمييز بعضها وتذكرت ماما وبابا .

لكن (ماجد) استأثر بكثير من خيالى ، فقد استحضرته فى كل مواقفه ، وشعرت بتيار عذب من الحنين ينسال فى داخلى « بالرغم من أنه من سلالة تختلف عن سلالتى وسلالة (أيمن) ، سأستوضحه فى هذا الأمر » .

والنسمة الطرية كانت كأنها موجة دافقة من العطر المسكر للروح ، وشعرت أن آلامًا صغيرة تتسرب من جسدى لتحل محلها راحة غريبة ..

فاستسلمت لنوم هادئ مريح .

ومن أعمق أعماق الحلم ، وصل إلى أذنى صوت غريب كأنه صوت أمواج متصارعة ، أو ريح مندفعة .. دبيب ملايين الأقدام ، وهى تسير مندفعة وصوت أقدام سريعة ..

والأقدام مندفعة كجبال من الأمواج تتداخل .

وتنبهت إلى أنه ليس حلمًا ..

فتحت عينىَّ ..

الكون كله مصطبغ بلون رمادى رائق .

خيوط الفجر الفضية ما زالت تجاهد للفكاك من أسر الليل .

ونسمات لاذعة .. تمس وجهى .. ، والصوت .. ما هذا الصوت ؟

شىء ما يندفع .. ليس شيئًا واحدًا .

إنه جيش يندفع ذهابًا وإيابًا ..

حاولت أن أخترق الظلام لأرى ماذا هناك .

لكن نظراتى انحسرت خائبة .

وتهدجت أنفاسى .

وأنا أتوقع خطرًا داهمًا ..

والأقدام مندفعة ..

كجبال من الأمواج ..

★ ★ ★

الفصل العاشر

(وقائع اليوم الأول)

نظرت حولى لأجد من أستغيث به ..

فرأيت (ماجد) و(أيمن) مستيقظين ..

ـ صباح الخير يا (شهيرة) .

ـ صباح الخير .. ماذا يحدث هنا ؟

قال (أيمن) :

ـ الصوت أيقظنى من النوم .

قال (ماجد) :

ـ إنى أسمع صوت الكلاب ، وأصواتًا أخرى مبهمة .

وظهر (أبو عمور) الذى أنقذنا من الحيرة ، وقال مبتسمًا :

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير .. ما هذا الصوت ؟

ـ الغنم فى طريقها للمرعى ، والكلاب تدفعها للسير .

تنهدت بارتياح ، ورغبت فى رؤية المنظر ، وتبعنى (أيمن) ..

أما (ماجد) فقد ذهب لصلاة الفجر ..

★ ★ ★

وقفت فوق تل صغير ومعى (أيمن) ..

فرأيت ثلاث نساء يحجزن الغنم الصغير حديث الولادة ، ويدفعن الغنم الكبير للسير .

والكلاب تستحث الخراف للانصراف .

والشاب (محمد) يركب حمارًا ويستخدم عصاه فى هش القطيع ودفعه للسير .

أما (تاج) فكان يمسك إناء كبيرًا ويحلب شاة ، ثم يتركها ويندفع إلى شاة أخرى .. وهكذا .

ابتسم الفجر ابتسامة واسعة غطت الأفق باللون الفضى ، وارتفع صوت الرجل الكبير (حسين) ، وهو يلوح بيده ..

ـ صباح الخير .

ـ صباح الخير .

تحولت أنظارى و(أيمن) إلى (حسين) وهو يركب جملاً .

ورأيت طفلاً صغيرًا أسمر يحوم حول الجمل دون خـوف ، وهو يقول :

ـ إلى أين « يا بوى » ؟

ـ أنا ذاهب للمورد « البئر » يا (مرجان) .

ـ أريد الذهاب معك .

ـ فى يوم آخر ، أنت اليوم رجل البيت ، ساعد الحريم فى تجهيز الطعام للضيوف .

نهض الجمل ، وتحرك ..

صاح (أبو عمور) : وى يا (حسين) !

ـ وى يا (أبو عمور) ! أفطر مع الضيوف ، والحق بى عند المورد .. كل الرعاة هناك .

ابتعد الجمل ..

وابتعدت الأغنام .. والكلاب تحرسها على الجانبين ، وعاد الهدوء إلى المكان .

وبعد قليل جاءت امرأة بصينية كبيرة وصاحت :

ـ (أبو عمور) .. (أبو عمور) ..

ـ وى يا أم (محمد) !

وتناول منها صينية الطعام ، وجاء إلينا ، وهو يقول ضاحكًا :

ـ هيا .. الإفطار يا مهندسين .

رأيتُ خبزًا ساخنًا مثل الرقاق ، وعسلاً أسود :

وجبنًا ، وإناء ممتلئًا باللبن ، وعددًا من الأكواب .

صب (أبو عمور) لبنًا فى كوب وقدمه لى :

ـ هذا لبن غنم لم تشربى مثله من قبل .. خذى ..

شربت رشفة فوجدت طعمه مستساغًا وشهيًا وشرب (مـاجد) و(أيمن) .

ثم بدأنا فى تناول الطعام ؟ وشعرت بحبيبات الرمل .

« سمعت أن اليابانيين يضعون السكر على السمك ، والهنود يضعون الشطة فى اللبن ، وهاهم الرعاة يضعون الرمال فـى كل الأطعمة والأشربة » .

ولأنى لا أحب الرمال ؛ فلم أتناول سوى لقيمات قليلة بالرغم من إلحاح (أبو عمور) .

و(أيمن) تناول الطعام متغصصًا .

أما (ماجد) فقد تناول طعامه بشكل عادى برغم الرمال ورغم عدم وجود أدوات مائدة ، أو رغم عدم وجود المائدة من أصله .

بعد الطعام سألنا (أبو عمور) بكرم « من لا يغرم شيئًا » :

ـ هل تشربون الشاى أم الجبنة ؟

أجبت بسرعة :

ـ أنا .. لا شىء .

ـ مارأيك فى كوب آخر من اللبن ؟

ـ لا بأس .

ـ خذى الإناء واشربى ما تريدين .

وقال (ماجد) : فلنشرب جبنة ..

أسرع (أيمن) بالقول :

ـ شاى أفضل ، ولكن بدون زعتر .

ضحك (أبو عمور) ، وأعد الشاى والجبنة .

عندما فرغوا من الشـراب صاح (أبو عمـور) ، فظهرت أم (محمـد) .. ناولها الصينية ووقفت تتحدث معه بنفس الكلام السريع المتداخل ، واللهجة المختلفة .

وعاد (أبو عمور) وسألنى إن كنت أرغب فى الجلوس مع النساء ، فرفضت .

قال (أبو عمور) لنـا : أنـا سأذهب إلى البئر لأبيع ما أحمل للرعاة ، أمـا أنتم فتستطيعون التنزه هنـاك عند منطقة الجبال الحمراء ، وسيحضر لكم (تاج) فى موعد الغداء .

وتركنا وانصرف بحماره .

وذهبنا إلى منطقة الجبال الحمراء .

ونحن فى الطريق ، سأل (أيمن) :

ـ متى نعود للمزرعة ؟

أجابه (ماجد) بهدوء :

ـ اليوم سأحدثهم فى هذا الأمر .

واستعاد (ماجد) هيئة القائد ، والتفت إلىّ وسألنى :

ـ لماذا لم تذهبى إلى النساء لعمل البحث الخاص بكِ ؟

صَمَتُّ ، وكأنى تذكرت فجأة مهمتى ..

قال (أيمن) « بدون مناسبة وكأن الأمر ضاغط عليه » :

ـ هذه أسوأ أيام قابلتها فى حياتى . وقد آخذ قرارًا يغير من مستقبلى .

وقلت بدون وعى ، وكأنى أعبر عن حقيقة واضحة :

ـ بالعكس ، هذه أجمل أيام .

قال (أيمن) مستفزًا :

ـ ماذا أعجبك فيها ؟

أخذت هيئة الفيلسوف ، بعد أن نسيت هيئة (نابليون) ، وقلت :

ـ كل شىء جديد خارج عن العادة والمألوف ، وكأن حواسى نفسها أصبحت جديدة لإبصار عالم جديد ، الحياة هنا طازجة .

قال (أيمن) بانفعال :

ـ هذه حياة بدائية متخلفة ، ولو عشتِ أسبوعًا واحدًا سيقتلك الملل ، أين التلفاز والنادى والصحبة والأسرة والشوارع والسيارات والزحام ؟ هنا خلاء يلتهم كل شىء .

ثم التفتنا معًا إلى (ماجد) ، وسأله (أيمن) :

ـ ما رأيك يا (ماجد) ؟

ـ إذا عشت متفرجًا فسيقتلك الملل ، لكن لو كنت واحدًا منهم ، فهذا شىء يختلف .

قال (أيمن) ليشغل تفكيرنا بالموضوع الرئيسى :

ـ دعانا نفكر فى الخروج من هنا .

قال (ماجد) بالبساطة التى يتميز بها فى تناولـه للمواضيع الشائكة :

ـ هذا شىء سهل ، ولن نمكث هنا سوى يوم أو يومين .

وقضينا الوقت نتجول بين جبال الجرانيت الحمراء .

وأحسست بأن الأشياء تحفر فى أعماقى طابعًا سحريًا ذا مذاق أسطورى ، بل شعرت أنى أعيش فى مدينة مسحورة .

وسألت (أيمن) :

ـ هل قرأت ألف ليلة وليلة ؟!

صاح (أيمن) بغيظ ، وهو ينظر إلىَّ نظرات غريبة وكأنه يكتشفنى من جديد :

ـ يا للتفاهة ! فى ماذا تفكرين ؟

قلت ، وقد أصبح (أيمن) يثير غيظى :

ـ تفاهة ؟!

قال ، وقد تلبسته مشاعر الضيق من كل شىء ، وبخاصة منى :

ـ نعم ... تفكرين فى المشكلة تفكيرًا سطحيًا ، نحن فى مأزق وأنت تتكلمين عن الخيال .

نظر إلىَّ (ماجد) نظرات غريبة ، وكأننا نتخاطر نفسيًا أو نسبح على نفس الموجة :

ـ هل تذكرتِ حكاية مدينة النحاس ؟

ازدهر شىء فى أعماقى ، فظهرت آثاره على وجهى وأنا أقول :

ـ نعم إنها هى ما أعنيها ... أنت قرأت ألف ليلة .

ـ طبعًا ، مرات .. ومرات .

قاطعنا (أيمن) بضيق :

ـ دعانا نفكر فى هذه الليلة فقط ، لا ألف ليلة .

قلت بعناد طفولى :

ـ لا .. أنا أفضل سماع حكاية مدينة النحاس ، هيا يا (ماجد) احكها لى .

نظر إلىَّ (أيمن) نظرات غريبة ، وتركنا وسار بعيدًا .. كأنه يريد أخذ قرار مصيرىّ ..

وجلسنا ، أنا و(ماجد) ، على صخرة ، وأمامنا عصفور لا أدرى من أين جاء .. وبدأ (ماجد) يحكى ..

كان صوته دافئًا مملوءًا بالحنان ، وكأنه أم تحكى لابنتها الصغيرة وتسقيها الأمان والدفء فى صوتها لتنام هادئة .

★ ★ ★

رأيت حيوانًا يقترب منا فالتصقت بـ (ماجد) ، وأنا أمسك ذراعه ، فانفجرت نافورة من ألوان زاهية فى داخلى .. خليط من الحنان الدافئ مع الخوف والراحة والأمان .

مشاعر مختلطة تترقرق فى داخلى ، وأنا أمسك بذراع (ماجد) وهمست : ذئب ..!

قال (ماجد) بهدوء : إنه كلب ..

ـ قد يكون مسعورًا .

ـ إنه كلب الرعاة .. لا تخافى .. ها هو قد جلس بعيدًا .

وبعد قليل ظهر (تاج) فوق حماره ..

وصاح مبتسمًا : وى يا مهندسين !

وصاح (ماجد) مقلدًا لهم : وى يا خوى !..

ـ هيا للغداء .

ونزل من فوق الحمار ، واقترب منا وحيًانا ، وهو يبتسم ابتسامة واسعة ، فظهرت أسنانه البيضاء اللامعة .

تأملته ، وأدركت أنه وسيم بالرغم من سواد لونه .

سألنى : هل تركبين الحمار يا مهندسة ؟

ـ لا .. شكرًا .

وجاء (أيمن) ، وعُدنا إلى الوادى .

وأحضر (تاج) الصينية الكبيرة ، وعليها كمية من اللحوم وطبقا بطاطس بالصلصة ، وخبز ساخن ..

وجاء الطفل (مرجان) .. حيًانا وجلس ..

تأملته .. عبارة عن قطعة أبنوسية لامعة ، وعيناه ممتلئتان ذكاء وشقاوة ، وقد ألبسته أمه جلبابًا أبيض نظيفًا ، فبدا لطيف الشكل ، وتناول قطعة لحم وأكل دون اهتمام بنا ..

وقال (تاج) : هيا يا مهندسين .. باسم الله ..

سأله (ماجد) : أين (أبو عمور) !

ـ سيأتى قرب الغروب مع أبى ، هيا مد يدك .

وللأسف لم تكن اللحم مزودة بالكاتشب ، ولكنها كانت مزودة بالرمال ؛ فلم آكل إلا قليلاً ..

وبعد الأكل رأيت أن أذهب إلى النساء فى الخيمة ..

وذهب (تاج) إلى المرعى .

وذهب (ماجد) و(أيمن) للتجول فى التلال المحيطة بالوادى ..

★ ★ ★

أمام الخيمة كانت المرأة العجوز أم (حسين) تغزل الصوف وتعيش فى عالم آخر .

و(نبوية) زوجة (حسين) وأم (محمد) و(تـاج) و(مرجـان) تخضُ القربة ، وكانت (صباح) ، وهى شابة فى السابعة عشرة أخت (حسين) ، تعتنى بصغار الغنم ..

تحدثن إلىّ بلهجتهن الغريبة فلم أفهم شيئًا ، لكن مشاعر دافئة متعاطفة وصلت إلىّ عبر ابتسامات صافية مشرقة ، وتحدثت إلـى (صباح) ، فرجوتها أن تتحدث ببطء وتوضح كلامها ، فسألتنى :

ـ ما اسمك ؟

ـ (شهيرة) .

ـ شعيرة ؟!

ضحكت وقلت : (شهيرة) .

ـ شعيرة أفضل .

ـ شعيرة .. شعيرة « كل واحد وبينته » .

وسألتنى : لماذا ترتدين ملابس الرجال ؟!

وهل أنت متزوجة ؟

ومن يكون الآخران !؟

من الواضح أن (صباح) هـى التى تعمل البحث عن المدن وظاهرة المرأة العصرية « مثلى » .

عمومًا .. تبادلنا الحديث .. والمرأة العجوز أمها تلف المغزل وتنظر إلينا وتغنى أغنية حزينة ، كأنها تبكى علـى حبيب مفقود أو حياة جميلة اندثرت .

★ ★ ★

وقبل الغروب ..

وقف الصغير (مرجان) على التل ..

وصعدت أنا و(صباح) مع الغنم الصغير فوق التل ..

وصاح (مرجان) فرحًا : بوى وصل .

وصرخ مناديًا : وى يا بوى .

ونزل التل جريًا ، وأخذ يرقص ، وهو يجرى وينادى ..

ـ وى يا بوى !

ويتحرك حركـات إيقاعيـة راقصـة كأنـــه تعبيـر غجـرى عـن السرور ، وأنا أتابعه فى حالة فرح وكأنى مغمورة فى عطر من

مشاعر السعادة ، ونظراتى تتـابع (مرجـان) ، وهـو يجـرى ويرقص ويصيح وينادى ، إنـه طفل السعادة يجرى على أرض الواقع .

تفجَّرت مشاعر الأمومة فى داخلى .

وعشت أحاسيس رقيقة دافئة لم أعشها من قبل .

بعد قليل ، رأيت (حسين) قادمًا وأمامه (مرجان) على الجمل ، وأيضًا (أبو عمور) كـان قادمًا راكبًا حمـاره ويغنى سعيدًا ، من الواضح أنه نجح فى بيع بضائعه .

ـ وى يا مهندسة !

ـ وى يا رجال !

ثم ارتفع فى الجو صوت ثغاء :

الصوت يملأ الوادى ، كل الغنم يصيح ويسرع .. إنه ينـادى .. وجرت الخراف الصغيرة إلى الشياه .

رأيت خـروفًا صغيرًا يتقدم مــن شـاة ، وهـو يثغـو ، وهى تثغو ... تشممته الشاة فلم تعرف رائحة صغيرها ، فدفعتـه بعيـدًا وهى تثغو .. وابتعد الصغير ، وهو يثغو .

وهكذا .. كل خروف صغير يبحث عن أمه ، وكل شـاة تبحث عن صغيرها ، وأنا أتابع المنظر ، ومازلت أعيش حالـة الأمومـة الدافئة ، وقلبى ملهوف مع الصغار ..

وجرس السعادة يدق بأصوات ذهبية فى قلبى ، عندما تتعرف الأم على صغيرها ..

مضت ربع ساعة والثغاء الملهوف الحنون يمـلأ الـوادى ، ثم خفتت الأصوات بالتدريج إلى أن تلاشت .

وبـدأت مرحلـة الحنـان ، كل أم تحنـو على صغيرهـا وتعطيـه سائل الحياة « اللبن » ، وتمسح عنه كل كدر بلسانها .

داعب المنظر أوتار الأمومة الكامنـة فىَّ ، فعزفت لحنًا دافئـًا ودودًا معطرًا بأسمى العواطف .

تقدم (حسين) و(أبو عمور) منى وهما يرحبان بى ..

وسألنى (أبو عمور) عن (ماجد) و(أيمن) .

★ ★ ★

تجمع كل الرجال وصلوا معًا ما عدا (أيمن) ..

تحلَّق الجميع حول النار ، وبدأ (محمد) فى إخراج البن والحبهـان لإعداد الجبنة .

قال (ماجد) :

ـ يا حاج (حسين) ، نحن نشكر كرم ضيافتك ولكن ...

(حسين) مقاطعًا :

ـ تريد أن تعود إلى أسوان ... أليس كذلك ؟

(أيمن) : لنا سيارة ...

(أبـو عمـور) : غـدًا سنذهب ، ونـرى إمكانيــة إصــلاح السيارة ..

(حسين) : اليوم سيأتى الرعاة ورئيس القبيلة ، للتعرف عليكم .

ثم نظر إلى (ماجد) ، وقال :

ـ وسماع السيرة النبوية ، وغدًا صباحًا سنذهب كلنا لإصلاح السيارة ، ونعطيكم دليلاً لتعودوا من حيث أتيتم ، أما الآن فإلى العشاء .

وجاءت (صباح) بصينية محملة باللحوم والبطاطس والخبز .

وبعد أن انتهى الطعام ، وبدءوا فى تناول الجبنة ، وكانت الشمس قد مالت كثيرًا نحو الغرب ، ولم تترك إلا آثارًا ذهبية شاحبة ..

رأينا سيارة تجـرى فـى الـوادى ، والجمـال فـى تشكيل بحيث تغطى الوادى كله وتكون السـيارة فـى الوسـط ، والجمـال تجـرى بشكل فرح ، وصوت راكبيها يعلو ..

ـ وى يا رجال !

ـ وى يا رجال !

كان الرعاة ورئيسهم قادمين لتحية الضيوف وسماع السيرة النبوية ..

توقفت السيارة فى الوسط ، وبركت كل الجمال حولها ، ووقفنـا لتحية القادمين .

ونزل من السيارة رجل فى العقد السادس من عمره ، أسود وطويل ونحيل ، ويلبس (جاكت) فوق الجلباب ، ويضع خنجرًا فى وسطه .

وصافح (ماجد) ، وهز يده بقوة .

وقال (حسين) مقدمًا الرجل : هذا رئيس القبيلـة .. الحـاج جار النبى .

وصافح جار النبى (أيمن) وهز يده بقوة .

ووقف أمامى ، وفغر فاه مندهشًا :

وصاح : وى يا بوى ... حورية من الجنة ! هذه عروسى .

ثم قال بجدية بالغة :

ـ أنا سأتزوج هذه العروس ..

وحلّ الصمت على الجميع ..

وسقط قلب (ماجد) إلى قدميه ..

واختفت الدماء من وجهى ..

سأل (ماجد) : ماذا تقول يا حاج ؟!

قال (أبو عمور) : هذا رئيس القبيلة وما يقوله أمر واجب النفاذ ..

صِحتُ خائفة : النفاذ ؟!

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

(الصراع الأخير)

قال (ماجد) محاولاً احتواء الموقف :

ـ لكن (شهيرة) مخطوبة .

وكأن كلام (ماجد) أيقظ الوعى كاملاً لدى ، فأشرت إلـى جار النبى ، وقلت بسخرية واستهانة :

ـ أنا (شهيرة) ، أتزوج هذا العجوز المخرف ..

حلّ الصمت على الجميع ، واهتز جار النبى غضبًا ، وأمسك خنجره قائلاً :

ـ أنا عجوز مخرف ؟! هذه إهانة لن يغسلها إلا الدم .

ثم نظر جار النبى نظرات حادة إلى (ماجد) و(أيمن) وسأل :

ـ من خطيبها ؟

تقلص قلب (أيمن) ، وغرق فى الصمت ، وصوبت النظرات كل النظرات إلى (أيمن) ، والرجل المخرف يصيح : من خطيبها ؟

ثم اتجه إلى (أيمن) وسأله : هل أنت خطيبها ؟

أجاب (أيمن) بصوت خافت ضعيف ، وهو يرفع يده اليمنى :

ـ لا ، أنا لست خطيبها .

وقتها انزاح شيء ثقيل عن صدرى ؛ لأنى لم أر دبلتى فى أصبع (أيمن) ..

بقراره هذا حسم (أيمن) الصراع المحتدم فى قلبى ..

شعرت بضيق من (أيمن) ، بل وسببته سرًا ؛ لأنه اتخذ القرار سرًا .

وتقدم (ماجد) من جار النبى ، وقال له بقوة :

ـ أنا أخوها .. ماذا تريد ؟

ـ أنا أتحداك لأثبت لهذه المرأة أنى فارس .

حاول (حسين) أن يتدخل ليوقف ما يحدث ، لكن جار النبى صرخ : لا أحد يتدخل ، قبل أن أغسل الإهانة .

فقال (ماجد) : ما هو موضوع التحدى ؟

ـ سباق الجمال .

ـ لم أركب جملاً من قبل .

ابتسم جار النبى منتصرًا ، ويبدو أنه استرد بعض كرامته ، وعلَق ساخرًا :

ـ هيه ! أنتم أبناء المدن لا فائدة فيكم ، ضعفاء كالعنز الهزيل .

ثم نظر جار النبى حوله ، وقال :

ـ هاتوا لنا « عصيًا » لأتحدى هذا الولد فى التحطيب .

وصحت أنا ثائرة :

ـ ما هذا ؟ من تكون أنت لتفرض علينا سلوكك الهمجى ؟!

أحضر أحدهم بعض العصى ..

وأشار جار النبى إلى (ماجد) وقال له :

ـ اختر واحدة .

ووقف الاثنان أمام بعض .

قال (ماجد) : إذا تغلبت عليك ، تنسى موضوع الزواج .

ضحك جار النبى ساخرًا ، ورقص بالعصا ، وهو يقول :

ـ هيا .

ـ لن أبارزك إلا إذا وعدتنى .

قال جار النبى ساخرًا :

ـ إذا تغلبت علىّ ، لن أتزوج هذه « شو اسمها » .

ودار كل منهما حول الآخر ، والرجال ينظرون إليهما .. بل والنساء وقفن من بعيد يشاهدن المبارزة .

كنت قلقة « رغم فرحى بعض الشىء لأن هناك من قبل المبارزة من أجلى ، خاصة بعد الإهانة التى وجهها (أيمن) إلىَّ » .

ضرب جار النبى الأرض بعصاه ، وكأنه يستعرض قوته ، وفعل (ماجد) مثله .

لوح جار النبى عصاه بحركات بهلوانية مستعرضًا مهارته .

وفوجىء الجميع بأن (ماجد) يحرك عصاه بنفس الحركات .

قال جار النبى ساخرًا :

ـ أنت قرد ، تقلد ما تراه .

ودار بسرعة ، ودار (ماجد) حوله ..

ثم توقف جار النبى فجأة ، ورفع عصاه ونزل بها على رأس (ماجد) ..

صرخت هلعًا ..

لكن (ماجد) أمسك عصاه من طرفيها رافعًا إياها فوق رأسه ، وتلقى الضربة الهائلة بثبات .

ضحك جار النبى إعجابًا بنفسه ..

وكانت هى اللحظة التى وجه فيها (ماجد) عصاه بسرعة خاطفة إلى عصا جار النبى ، فألقاها بعيدًا ..

نظر جار النبى إليه مذهولاً ..

وخيم الصمت على الجميع إلا أنا ..

فقد صفقت بكلتا يدىَّ وصِحتُ فرحة : « ول .. يا ول » .

رمى (ماجد) عصاه بعيدًا ، وتقدم من جار النبى محتضنا إياه قائلاً : أنت فارس قوى ، وأنا خدمنى الحظ .

صمت جار النبى مذهولاً ، وسار إلى سيارته بصمت وركبها ، وتبعه الرعاة كلٌ على جمله ، واختفوا فى الصحراء .

وأنا أنظر إليهم ، وكأنى أعيش فى حلم عجيب .

وجاء ميعاد النوم ، وتعلقت عيناى بنجمة لامعة أناجيها .

والنسمة الباردة هدأت من انفعالاتى .

وما لبث أن حل النوم ضيفًا ودودًا .

★ ★ ★

قبل الفجر سمعت صوت (حسين) ينادى : وى يا مهندسين !

استيقظ (ماجد) وحياه : صباح الخير ..

قال (حسين) بسرعة : صباح الخير .. هيا سنذهب حالاً إلـى السيارة .

أيقظنا (ماجد) ..

وقال (حسين) لنا : هيا بسرعة ، أنا مضيفكم ، ولـن أسمح بأى سوء ينالكم ، وجار النبى لن يسكت عن هزيمته ، ثم التفت إلى (ماجد) ، وقال له : أنت كسرت كبرياءه .

رأيت ثلاثة جمال باركة على الأرض ..

ركب (ماجد) خلف (حسين) ، وركب (أيمن) خلف (محمد) ، وركبت أنا خلف (تاج) .

وجاء (أبو عمور) والنسوة مودعين .

نهضت الجمال ، وبدأت السير .. ثم هرولت ، وبعد ذلك جرت .

فى كل لحظة كنت أشعر أنى سأسقط فأتشبث بتاج .

و(حسين) يقول : يجب أن نسرع قبل أن يشعر جار النبى .

بعد ساعتين ، وصلنا إلى مكان السيارة ونزل الجميع .

حركت يدى وساقى وأمسكت ظهرى .

لكن (حسين) قال بسرعة « أصبح هو القائد الآن » :

ـ هيا ، أحدكم يركب السيارة ، ونحن ندفعها .

ركبت السيارة ..

واشترك (ماجد) و(أيمن) و(حسين) و(محمد) و(تـاج) فى دفعها .

أدرت المفتاح ، سمعت حركة ضعيفة .

ثم أعدت الكرَّة مرة ومرات ، وهم يدفعونَ بقوة .

فجأة « كما يحدث فى كل القصص » سمعنا صوت سيارة .. نظرنا نحو السيارة القادمة من بعيد .

صاح (حسين) بلهجة يائسة :

ـ إنها سيارة جار النبى .

عندها بلغت القلوب الحناجر .

★ ★ ★

الفصل الثانى عشر

(النهــاية)

أخذوا يدفعون السيارة بقوة ..

دون فائدة ..

واقتربت سيارة جار النبى منا ..

وصاح جار النبى : ماذا تفعلون ؟

توقفت الحركة ، وأصبح المشهد ساكنًا ..

واتجهت النظرات إلى جار النبى متسائلة مسترحمة .

تقدم جار النبى منا ، وقال :

ـ البطارية ضعيفة محتاجة إلى توصيلة ، وقد جئت من أجل ذلك .

صحنا جميعًا : ماذا ؟!

ضحك جار النبى وقال :

ـ جار النبى فارس لا يحنث بوعده ، وقد وعدت هذا الفارس .

ووضع يده على كتف (ماجد) بود ..

احتضنه (ماجد) وربَّتَ عليه كثيرًا .

قال جار النبى : ذهبت إلى الخيام لأعرض مساعدتى ، فعرفت بذهابكم دون وداعى ، فقررت اللحاق بكم لأودعكم .

وتم عمل توصيلة من بطارية جار النبى إلى بطارية سيارتنا ..

وقال جار النبى « أصبح هو القائد الآن .. فسبحان مغير الأحوال » ..

ـ أديرى المفتاح .

وأدرت المفتاح ، وتحرك الموتور ..

قال بأَرْيَحيَّة :

ـ انتظروا قليلاً لشحن البطارية ، ثم انطلقوا .

قال (حسين) : سيذهب (تاج) معكم إلى قرية العلاقى ليحضر لنا أشياء من هناك ، ويدلكم على الطريق .

وانطلقت السيارة يقودها (ماجد) ، وأنا بجواره أما (أيمن) فجلس فى الخلف ومعه (تاج) .

وكان (حسين) وجار النبى و (محمد) يلوحون بأيديهم مودعين ..

وأخيرًا وصلت السيارة إلى المزرعة .

★ ★ ★

فى اليوم التالى أخذت حقيبتى ووضعتها فى السيارة استعدادًا للعودة إلى القاهرة .

جاء (ماجد) .. ودَّعنى فى صمت وكبرياء وعاد إلى حجرته . ثم ظهر (أيمن) .. ووقف أمامى ونظراته غير مستقرة ، لكنه استعاد وسامته ، وقال لى :

(شهيرة) نحن صديقان ، والخطبة فى الأساس هى فترة لمعرفة التوافق الوجدانى والعقلى .

وللأسف اكتشفت أننا مختلفان ، وعلى كل منا أن يبحث عن شريك يتوافق معه .

قلت له بحماس : هذا كلام العقل وأنا أوافقك عليه ، ثم أعطيته الخاتم الخاص به .

وأعطانى خاتمى .. كأنه أعطانى حريتى .

لكن برغمى شعرت بضيق نفسى ، لأنى لن أنسى أنه هو الذى رفضنى .

رأيته يهز رأسه بكبرياء ، ويعود إلى حجرته .

وانطلقت أنـا بسيارتى ، ثـم بالطـائرة إلـى القـاهرة ، وهنــاك عرفت أن (أيمن) قدم استقالته ، وغادر المزرعة .

★ ★ ★

بعد عشرة أيام كان (ماجد) يقطع الطريق إلى المزرعـة فـى المساء عندما سمع صوت كلاكس خلفـه ، فـأخذ يسار الطريق وأعطى إشارة للسيارة بالمرور ..

لكـن السـيارة تبعتـه ، وهـى مسـتمرة فـى إصـدار الصـوت المنفر .

توقـف بسيارته . واتجه غاضبًا إلـى السيارة المزعجـة التـى وقفت .

صاح (ماجد) : ألا تعرف الذوق ؟! ماذا تريد ؟

نزلت (شهيرة) من السيارة ، وهى تضحك قائلة :

ـ أريد أن أعرف الطريق إلى مزرعة اليونسكو .

ـ (شهيرة) !

ـ (ماجد) !

وتعانقت الأصابع والقلوب ..

(تمت بحمد الله)

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى





قلوب فى الصحراء

بجناح الحب البنفسجي
حلقت إليه ممتلئة بالأشواق
العذراء ، وبحيرة من الحنين
تتحرك فى قلبى وعلى ضفافها
غردت الطيور الخضراء ؛ لكن شمس
الصحراء جففت البحيرة ، والنجوم
المتألقة أشارت إلى طريق آخر
لكل منا .

شهيرة

109

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



